رواية

الهؤلاء

مجيد طوبيا

عنوان الكتاب : الهؤلاء
المؤلف : مجيد طوبيا
المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس
الإخراج الداخلي : رشا عبدالله
تصميم الغلاف : عمرو الحو
رقم الإيداع : ١٤٧٣٦ / ٢٠١٧
ردمك : 978-977-6549-38-8
الطبعة الأولى: يوليو 2017

المدير العام : هاله البشبيشي
المدير التنفيذي : شريف الليثي

دار تويا للنشر والتوزيع

dartoya2015@gmail.com
دار تويا للنشر و التوزيع Dar.toya
@Dar_Toya
Dar.toya
(+2) 01150483084 - (+2) 01000706014
٣٥ شارع النصر – المعادي – القاهرة – مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

رواية
الهؤلاء

مجيد طوبيا

الفصلُ الأولُ
آلةُ الزمنِ الموسيقيةُ

*** السببُ في وقوع كل ما حدث:**

بـدأ كل ذلـك عندمـا كنـتُ أقـرأ كتابًـا بلغـة ديـار "أيبوط" المجيـدة، التـي كان مـن نصيبـي أن أكـون أحـد رعاياهـا.. ولـو لم أكـن أقـرأ لمـا حـدث شيء عـلى الإطـلاق..

قــرأتُ أن دوران الأرض حــول نفســها يحــدث في اتجــاهٍ مضــادٍ لــدوران عقــارب الســاعة!!.. دُهشــتُ جــدًّا، وقلــتُ :لمـاذا تـدور الأرضُ ضـد السـاعة وليـس معهـا؟! وظـل هـذا السـؤال يشـغلني فـترةً طويلـةً، إذ خطـر لي أن هـذا التضـاد فـألٌ سـيئٌ سـوف ينتهـي حتـمًا بنهايـةٍ مريبـةٍ.. وأخـذتُ أُسـائلُ نفـسي عـن المسـئول عـن هـذا الوضـع الخطـير!!

لكني سرعان ما تنبهتُ إلى أن الخطأ يقعُ على مُخترع الساعة؛ ذلك أن الأرض كانت تدورُ في اتجاهها من قبل أن يُصمم ابتكاره، وهو الذي شاء أن يختار لها الدوران بالضد!! وكان يُمكنه أن يفعل النقيض، أن يُركب تروسها وباقي أجزائها بحيث تدورُ العقارب مع اتجاه دوران الأرض، ولو فعل ذلك لما حدث لي كل ما حدث من إهاناتٍ واتهاماتٍ ومن ابتعادٍ عن حبيبتي واسعة العينيْن ذات الهمسة الآسرة..

وكي أكونَ منصفًا لهذا المخترع الذي لا أذكر اسمَه أقول إنه ربما لم يكن يعرفُ شيئًا عن اتجاه دوران الأرض، ومن الجائز جدًّا أنه كان يظنها ثابتةً..

وصار شغلي الشاغل هو البحث عن وسيلةٍ لإصلاح الحال بحيث لا تُخالف الأرضَ في دورانها أي ساعةٍ من ساعات بني البشر..

*واقعةٌ مهمةٌ سبقتْ كل ذلك:

لكن قبل أن يحدثَ كل ما حدث، جرتْ واقعةٌ مهمةٌ مفادها ما يلي:

فقد كنتُ سائرًا ذات يومٍ في أحد شوارع عاصمة "أيبوط" الفتية، عندما شككتُ في أن ساعتي غير مضبوطةٍ،

وللتأكد أوقفتُ أحد المارة وسألته عن الوقت.. حملق نحوي مرتابًا وقال باستنكارٍ:

- أنا لا أحمل ساعةً أبدًا، أتركها في البيت دائمًا.. انظر!

وسحب كُمَّ قميصه الأيسر إلى الخلف ليؤكد كلامه؛ بالمثل فعل مع كُمه الآخر وهو يصيحُ في كل مرةٍ: "انظر".. ثم قال:

- كذلك لا أثبت قلمًا من أي نوعٍ في جيبي العلوي الخارجي ولا حتى الداخلي..

حملق فيَّ:

- أنا لا أستعملُ هذه الأشياء، وخاصةً عند حديثي مع المثقفين.

حدثتُ نفسي بأنني وقعتُ على رجلٍ مخبولٍ، وكانت حماقتُه قد زادت فأسرعتُ مبتعدًا عنه عابرًا الميدان من ناحية اليسار، ارتحتُ لأنه اتجه إلى الناحية الأخرى.. إلا أنني عند عبوري أمام المقهى إذ به يلحق بي بابتسامةٍ مُرتعشةٍ ويقولُ:

- لعلك تظنني مجنونًا؟!

قلتُ في جفاءٍ:

- أنا لا أظن شيئًا.

ثم مشيتُ مُقطبًا فسار بجواري:

- أعطني فرصةً كي أثبتَ لك عدم جنوني..

واجهتُه غاضبًا:

- سيان عندي إن كنتَ مجنونًا أو عاقلًا، هذا لا يهمني، ابتعد عني..

ثم أسرعتُ لكنه تبعني متوسلًا، دافعًا ببطاقة هويته أمام عيني فلمحتُ اسمه فإذا هو أحد أدباء "أيبوط" نصف المعروفين! لم أصدق من باب الحذر وأمسكتُ بالبطاقة وفحصتُها جيدًا.. تبدو حقيقيةً وإن كان من الجائز أن تكون مزيفةً، لكنه أراني صورته في مجلةٍ بيده.. قال:

- فنجان قهوة على هذا المقهى وأشرح لك كل الأمر..

ونادي الجرسون باسمه، ثم استدار نحوي:

- أنت لستَ من هذه المدينة؟

- فعلًا.. أنا وافدٌ حديثٌ.

- خمَّنتُ ذلك بمجرد سؤالك عن الساعة.

زادتْ دهشتي.. قال:

- أي مثقف من هذه العاصمة يتحاشى ذكر الساعات..

عاودني شكي في خبله، لكنه حكى لي حكايةً غريبةً..

***الحكاية الغريبة التي رواها لي:**

قال:

- ويُمكنك اعتبارها نكتةً لو استظرفتها..
- إني مُنصت..
- الأمرُ يتعلق بشائعاتٍ جاريةٍ تربط بين بعض مثقفي ديار أيبوط وبين "الهؤلاء".

سكتَ مُتفحصًا رد فعلي عقب ذكره لسيرة "الهؤلاء".. لكني حرصتُ على أن يظل وجهي جامدًا لا ينم عن أي انفعالات -والحذر في مثل هذه الحالة واجبٌ يفرضه التعقل -إذ إن المثقفين يستعملون كلمة الهؤلاء للدلالة على رجال المباحث والعسس والمتعاونين معهم..

ثم عاد جليسي إلى الكلام:

- تقول هذه الشائعاتُ الجاريةُ بأن نسبة المتعاملين سرًّا مع الهؤلاء من بين المثقفين تصلُ إلى الخمسين في المائة: من كل عشرة خمسة ومن كل ستة ثلاثة، وهكذا.. وحدث أن جلس اثنان معًا فسأل أحدهما الآخر إن كان من الهؤلاء، فردَّ نافيًا ذلك، فقال له: إذن فهو أنا!!..

ضحك.. فابتسمتُ مجاملًا إذ لم تُعجبني النكتة.. لاحظ هو ذلك فقال:

- مع أن المثقفين يضحكون جدًّا وبعصبيةٍ شديدةٍ من هذه النكتة!! بالفعل أنت قروي!

ثم خفض من صوته موضحًا الأمر:

- يساهم المثقفون من صحفيين وأدباء وفنانين في توجيه الرأي العام، هذا أمرٌ معروفٌ؟
- نعم.
- لذلك فهم أكثر الفئات تعرضًا لأن تُراقب تصرفاتُهم وأقوالهم، ولأن تُصادر حرياتهم.. ولعلك تعرفُ أن ذلك يحدثُ في بلادٍ عديدةٍ مثل بلادنا حتى صار من سُنن الحياة!!

لم أعلق.. قال:

- ويظن المثقفون في هذه البلاد العديدة أن أحاديثهم الخاصة يتم تسجيلُها بمعرفة الهؤلاء، عن طريق أجهزة تسجيلٍ دقيقةٍ تُوضع في ساعةٍ بمعصم مُحدثهم أو في قلمٍ بجيبه العلوي. أو ما شابه ذلك من مخترعاتٍ حديثةٍ..

حزن صوته:

- لذلك تجد الواحد منهم يبدأ حديثه معك طبيعيًّا إلى أن تقعَ عيناه على ساعتك فيتبدل حاله ويتراجع في أقواله.. ويتحول -في غمضة عينٍ -من إنسانٍ مُثقفٍ

إلى أسـطوانةٍ مشروخـةٍ يظـل يُكـرر الآراء المنشـورة، وينهـالُ مدحًـا وتقريظًـا لصفـات "الديجـم" رئيـس ديارنـا المحبـوب ودون مناسـبةٍ أو مـبررٍ.. يبـدأون بالشـك في كل غريـبٍ، ثـم في الأصدقـاء البعيديـن وينتهـون بالريبـة في أقـرب الأقربـاء إليهـم!.. وكنـتُ أعـرفُ أن دوري قـادمٌ فأنـا أضـعُ سـاعةً في معصمـي لأن معرفـة الوقـت أمـرٌ مهـم جـدًّا؛ كـما أني أحـب أن أحملَ القلـم في جيبـي لأن تسـجيل الخواطـر فـور ورودهـا عـلى الذهـن أمـرٌ حيـوي بالنسـبة لي. لكـن نظـرات الرعـب في عيونهـم أشـعرتني بالإهانـة، فتنازلـت عـن حمـل هـذه الأشـياء، وتخلصـتُ مُرغـمًا مـن قلمـي فضاعـت منـي كثـيرٌ مـن التهويمـات المبتكـرة!!.. ومـن سـاعتي فلـم أعـدْ أحافـظُ عـلى دقـة المواعيـد.. عندمـا يرتبـطُ أحـدُ المثقفـين معـك بموعـدٍ فإنـه يقـول لـك: قابلنـي صباحًـا أو بعـد الظهـر أو مسـاء ولا يُحـدد لـك وقتًـا محـددًا لأنـه لا يحمـل سـاعةً!!

تنهـد.. ثـم نظـر إلى الشـارع وشـاعت الحركـةُ في نظراتـه قائـلًا في أسى كبـيرٍ:

- وسأريك فورًا تجربةً عمليةً.. انظر!!

***التجربة العملية التي أجراها في وجودي:**

وقف مُرحبًا برجلٍ كان يهبطُ من سيارةٍ جديدةٍ.. ثم قدَّمه لي فعرفتُ أنه صاحبُ قلمٍ مشهورٍ.. غمزني ثم مضى يقولُ رأيه في رئيسنا "الديجم" وفي بعض الساسة بسخريةٍ لاذعةٍ، فضحك صاحبُ القلم المشهور بابتسامةٍ واسعةٍ مُشرقةٍ وبدأ يُشارك في الهجوم.. لكنه فجأةً -ولدهشتي الحزينة -وقع نظرُه على ساعتي البارزة من كُم قميصي، فبرقتْ في عينيْه نظرةُ خوفٍ كريهةٌ وصارت ابتسامته مُرتعشةً، ثم اقتربَ بفمه من معصمي وقال بنبراتٍ واضحةٍ:

- على العموم فإن هذا رأيك أنت..
- طبعًا تُوافقني عليه؟

قرب بفمه أكثر من ساعتي وقال بصوتٍ أعلى:

- رأيي في هذا الموضوع والذي لا أحيد عنه هو .....

ومضى يُردد بصورةٍ آليةٍ ومن حنجرةٍ باردةٍ غير متلونةٍ آراء سمجةً لا تخرج عما يُردده راديو وتلفزيون وصحافة أيبوط الفتية..

ثم استدار إلى الشارع مُغيرًا مجرى الحديث بتعليقاتٍ أخذ يُطلقها على كل عابرةٍ من أمامنا فهذه رائعةٌ ترم العظام وهذه تُعيد للكهل شبابه وهذه تُدفئ المرء في

بـرد الشـتاء.. ثـم ذكـر بعـض الشـائعات الجنسـية عـن ممثلةٍ سـينمائيةٍ معينـةٍ وأخـرى مسرحيـةٍ مشـهورةٍ جـدًّا، وتحـدث عـن الشـذوذ عنـد الذكـور مـن الشـخصيات العامـة وذكـر في هـذا المجـال عـددًا كبـيرًا جـدًّا مـن الأسـماء اللامعـة..

وعقب ذلك نهض إلى سيارته مُنصرفًا، فقال جليسي:

- مَـن يسـمعه يظـن أنـه ذئـبُ نسـاء خطـير، وأمـره مـع المـرأة قـد انتهـى منـذ سـنواتٍ.. يكتـب مقـالاتٍ معـادةً في السياسـة لكنهـا جيـدةٌ، ويحـشرُ نفسـه في الأدب والفـن فيبـدو غبيًّـا ضيـق الأفـق..

*تنبيه قبل أن أعود إلى الحكاية الأصلية:

ليكـن معلومًـا أن كلًّا مـن صاحـب القلـم المشـهور والأديـب نصـف المعـروف هـما شـخصيتان مـن اختراعـي، ولا عَلاقـة لهـما بالواقـع المعـاش في ديارنـا الأيبوطيـة المظفـرة.. كذلـك الحـال مـع جميـع الشـخصيات التـي قـد يـأتي ذكرهـا فيـما بعـد..

وقـد تعمـدتُ ذكـرَ هـذه الحقيقـة حتـى لا يُجهـد أحـدٌ ذهنَـه في محاولـة تخمـين لا جـدوى منهـا.. فهـذه الروايـة لم تقـع هنـا، لم تحـدث الآن.. وإنمـا حدثـت أحداثهـا إبـان زمـنٍ غـير مؤكـدٍ وفي بقـاعٍ غـير معروفـةٍ.. لـذا لـزم التنويـه..

كذلك فإن شخصية الراوي -الذي هو أنا -تخيليةٌ غير موجودةٍ.

***عودةٌ إلى دوران الأرض ودوران الساعة:**

بعد حكاية ساعات المثقفين السابقة قرأتُ بالصدفة -في كتابٍ باللغة الأيبوطية-عن دوران الأرض، وكيف أنها تدورُ ضد الساعة وخطر لي -كما ذكرتُ -أن هذا التضاد فألٌ سيئ.. فكيف نتلافى هذا الاختلاف؟!

جلستُ أشعل لفافة تبغ من لفافة تبغ -فهكذا يُفكر أبطالُ أفلامنا -متأملًا الدخان الكثيف الذي لم يكن يتصاعدُ إلى سقف الغرفة وإنما كان يتبعثرُ خارجًا من النافذة.. وكررت ذلك إلى أن واتتني الفكرةُ النيرة التي أدت إلى تعرضي للإهانات والافتراءات وإلى افتراقي عن حبيبتي الخمرية دافئة الحضن..

ذهبتُ إلى مبنى إذاعة وتلفزيون أيبوط، حيث وجدتُ عددًا من "الهؤلاء" يحرسون المدخل، استوقفني أحدُهم وسألني عن هدفي فلم أُفصح وقلتُ له:

- أريد مقابلة المدير..

زاد احترامه لي وسألني في أدبٍ مبالغٍ:

- أي مدير؟

- مدير الإذاعة والتلفزيون.
- لكل منهما مدير أيها السيد.
- أريد مقابلتهما معًا..

أمسك قلمه ليكتبَ في دفترٍ طويلٍ عريضٍ أمامه اسمي ورقم هويتي.. فدُهشت وسألته عن جدوى هذه الإجراءات؟!.. فهمس وعيناه تغمزان في خطورةٍ:

- احتياطات أمن ضرورية، تعرف أن لنا أعداء..

ثم عاد يسألني عن هدفي من الزيارة، فعرضتُ عليه المشكلة في تبسيطٍ شديدٍ يليقُ بإلمامه العلمي الضئيل، إلى أن قلتُ في هدوءٍ شديدٍ:

- أما عن تغيير دوران الأرض فهذا محالٌ، على الأقل في حدود المُتاح لنا علميًّا الآن.. فيكون الحل الوحيد والذي لا يُوجد غيره هو دعوة الناس إعلاميًّا إلي المشاركة في مناقشة هذه المشكلة وحثهم على المساهمة بأفكارهم كي لا تدور ساعاتهم ضد الدوران الطبيعي للأرض، وبذلك نقتل الفأل السيئ..

حملق الثلاثة إلى بعضهم البعض بطريقةٍ مريبةٍ!

***إنه يتحدثُ عن القتل:**

هكذا همس الأول فهمس الثاني:

- تحدث فعلًا عن القتل!!

جحظ الثالث:

- القتل؟!

ومن فوري ارتعبتُ وتركتهم وفررتُ هاربًا مُشيعًا ببعض الأشياء القابلة للقذف..

***حديثٌ مريبٌ عن الرموز:**

بعد أن اطمأننتُ إلى أن أحدًا لا يُطاردني انتحيتُ جانبًا إلى شاطئ النهر، حيث جلستُ على السور الحجري قريبًا من الكوبري الخشبي، وكانت بعضُ السحب تحجبُ الشمس، وكنتُ عرقانًا لاهثًا عندما اكتشفتُ رجلًا بعينٍ جاحظةٍ يجلسُ إلى جواري مبتسمًا في لزوجةٍ ويقول:

- كان نصيبي أن سمعتُ كل حديثك مع حراس المدخل..

قلتُ في سري إنه واحدٌ من الهؤلاء.. قال:

- لا لستُ واحدًا من الهؤلاء..

قلتُ لنفسي إنه يكذب.. فقال:

- وأنا لا أكذب يا عزيزي.

فماذا يُريد إذن؟! قال:

- أدهشتني فكرتك عن دوران الساعات البشرية ضد اتجاه دوران الأرض..

فهل تقصدُ البشر في أيبوط فقط أم البشر في جميع أنحاء العالم؟

لم أرد.. قال:

- وهذه هذه حقيقةٌ واقعةٌ فعلًا أم أنك تقصد مِن وراء ذلك رمزًا؟

إنه يستدرجني، لن أتكلم.. قال:

- أنا لا أستدرجك إلى أي شيء، تبدو ناصحًا.. ولكنني شغوفٌ لمعرفة إن كنت تقصد بعض الرموز في كلامك هذا؟

- وما هي هذه الرموز؟!

- مسألة أن ديار أيبوط السعيدة تسير ضد الزمن وليس معه!!

هذا كلامٌ في السياسة، لن أتكلم.. قال:

- أنا لا أجرُّك إلى كلامٍ في السياسة.. صدِّقني؛ لكنك تعرفُ أن لبعض الناس آراء حمقاء: إذ يزعمون بأن هذه الديار قد تخلفت عن حضارات هذا القرن بعشرات

السنوات!.. وهذه سخافةٌ، فالذي حدث أن هذا القرن هو الذي سبق هذه الديار بعشراتِ السنوات..

حملقتُ إلى عينيْه الجاحظتيْن:

- وما الفرق؟!
- فرقٌ كبيرٌ.. فهم يزعمون أن أيبوط الخالدة قد تخلفت، وأنا أقول بأنها لم تتخلف أبدًا ولكن هذا القرن هو الذي سبق.

لزمتُ الصمت موقنًا بأنه معتوهٌ لا ريب.. فابتسم في رحابة صدرٍ:

- لستُ معتوهًا..

اغتظتُ وتركته هاربًا بأقصى سرعةٍ، حتى عبرتُ إلى الضفة الأخرى للنهر.. لكنه كان يتتبعُ أثرى فوق أرضية الكوبري الخشبي مستخدمًا حاسة الشم!!

*أرجوك أن تُسامحه:

.. بعد ذلك عدتُ إلى الضفة الأولى بواسطة أحد القوارب من قبيل التضليل.. وفي الميدان الكبير وجدتُ آلة الزمن الموسيقية الضخمة، وتحركات عقاربها تجري على عواهنها، وأصوات موسيقاها صخب وضجيج!.. وجلستُ أتذكرها عندما كانت جديدةً ومصانةً، لكل ربع ساعة فيها نغمةٌ

خاصـةٌ ترقـص عليهـا عرائـس بديعـة تظهـر وتختفـي في الوقـت المناسـب وفي تناسـقٍ سـاحرٍ يأخـذ بالألبـاب.. وقلـتُ: تدهـورت آلـة الزمـن الموسـيقية بعـد أن كانـت أعجوبـةً في الدقـة!.. ثـم تحـاورتُ مـع نفـسي عـن بعـض الـدول التـي تتحـدثُ فقـط عـن العلـم مـع أنـه لا يدخـل في تكوينهـا النفـسي أو الحيـاتي، ثـم أخـذتُ أقـول بـأن تلـك هـي علـة العلـل.. وعندئـذ إذا بي أسـمع صوتًـا يقـول:

- معك حق في كل هذا.

تنبهـتُ إلى حملقـة رجـلٍ يجلـس لصقـي.. فـارت دمـائي، صرخـتُ فيـه:

- هل تتجسسُ على أفكاري أنت الآخر؟!

قال في هدوءٍ مريبٍ:

- أيهـا السـيد العزيـز: كيـف يُمكننـي معرفـة أفـكارك وأنـت لم تُحدثنـي بهـا بعـد؟!

لاحظـتُ شـدة شـبهه بالجاحـظ السـابق.. فقـال عـلى الفـور:

- إنـه أخـي، وقـد أرسـلني كي أبلغـك اعتـذاره، يأسـف أخـي إن كان قـد سـبب لـك بعـض الإزعـاج.. وقـد تركتـه يبـكي في البيـت ندمًـا عـلى مـا بـدر منـه.. وأننـي باسـم رئيسـنا الديجـم الرائـع أرجـوك أن تُسـامحه:

قلتُ أتخلصُ منه:

- سامحته.
- شكرًا لك سيدي العزيز.

ثم نهضتُ مُستأذنًا..

***دعوةٌ لزيارة الملك المصري القديم:**

.. لكنه اعترض طريقي سائلًا:

- كم الساعة معك الآن؟
- الثانية عشرة والنصف ساعة.

نظر في ساعته وقال:

- كما لاحظ أخي تمامًا.. ساعتك تتقدم الوقت الرسمي بنصف ساعة، فنحن الآن في الثانية عشرة فقط، والدليل على ذلك أن ظلالنا أسفلنا تمامًا.. فالشمس الآن عمودية تتوسط السماء..
- أعرف أن ساعتي تتقدم نصف ساعة، وهذا يُسعدني.. وأرجوك أن تدعني لوحدي..
- هل يُسعدك خلل الساعة؟! أم هي رغبة دفينة بداخلك لسبق الزمن الرسمي؟!

لم أرد عليه، وكان صبري قد نفد، ولم أكن أريد الحديث معه، فقلتُ له مهددًا:

- إن لم تتركني ضربتك..

ألح في لزوجةٍ:

- حِلمك يا عزيزي.. واسمح لي أن أصحبك في زيارةٍ قصيرةٍ.

هددته بقبضة يدي محذرًا.. فقال مُصرًّا:

- عفوًا أيها السيد الغالي.. زيارة قصيرة لمتحف آثار مصر القديمة قد تُعطينا الإجابة عن مشكلة الزمن التي تشغل ذهنك.

***السرُّ المفقود:**

وأخذني في رحلةٍ سياحيةٍ إلى هناك، حيث قادني رأسًا إلى غرفة المومياوات.. أشار إلى مومياء ملك المصريين القدماء الملك الطفل المُسمى "توت- عنخ -آمون".. وقال:

- دقق النظر إلى هذا الفتى الوسيم!

تفحصتُ وجه الملك.. كان ناظرًا إلى أعلى وفي هدوءٍ، نضر الوجه كأنه يهم بالابتسام.. سألني:

- هل تجد أي تجاعيد على وجهه؟

- إطلاقًا، فهو لم يُكمل بعدُ العشرين عامًا.
- متى كان ذلك؟

وجمـتُ، وحاولـتُ تذكـر الوقـت الـذي عـاش فيـه.. فقلـتُ:

- منذ حوالي ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد.
- وما زال شابًّا؟
- ... ...
- وما زال شابًّا؟

قلت:

- لكنه مُحنط.. أي ميت!!
- فهل نجدُ في هذا الأمر معنى رمزيًّا؟

احـترتُ، هـا هـو ذا يعـودُ مثـل أخيـه إلى حديـث الرمـوز.. شـعرتُ بـدوار مـن هـواء المتحـف الراكـد، فخرجـتُ عـلى الفـور.. وعـدتُ مـن سـياحتي القصـيرة هـذه إلى جلسـتي الأولى عنـد آلـة الزمـن الموسـيقية التـي عطبـت، حيـث وقـف الجاحـظ يودعنـى:

وبخصـوص دوران الأرض يسـأل أخـى: أولًا هـل أنـت متأكـد أنهـا تـدور أصـلًا؟!

- العالم كله يعرف ذلك.

- حسـنًا وإن كنـتُ أكـره المُسـلمات.. فهـل أنـت واثـق- يسـألك أخـي -مـن أنهـا تفعـل ذلـك في اتجـاهٍ مضـادٍ لحركـة عقـربي السـاعة؟

هزَّ كتفيْه ناصحًا:

- أرجوك التأكد من هذا.

***هذا مكتوب:**

عُـدت إلى الكتـاب الـذي قـرأتُ فيـه مسـألة الـدوران هـذه، وكان مـن حسـن حظـي أن وجـدت عـلى ظهـر الغِـلاف صـورةً للمؤلـف أسـفلها نبـذةٌ عـن حياتـه ومؤلفاتـه وتاريـخ ميـلاده وعنـوان مسـكنه، ومـن فـوري قـررتُ زيارتـه..

وفي إحـدى الفيـلات الأنيقـة وجدتـه يُداعـب كلبًـا ضخـمًا لـه كمامـة عـلى فمـه، مـضى يُحدثنـي عـن عراقـة سـلالته، وعرَّفنـي باسـمه موضحًـا بأنـه لا يسـتجيب إلا لصوتـه هـو فقـط.. ثـم طلـب منـي أن أجـرب، فناديـت عـلى الكلـب باسـمه فلـم يتحـرك ولم ينظـر لي بتاتًـا.. فضحـك صاحبـه مؤلـف الكتـاب ونـاداه فـدب النشـاط في جسـده وهـزَّ ذيلـه.. قـال:

- النوع الأصيل لا يستجيب إلا لصوت صاحبه فقط..

ثـم حدثنـي في إفاضـةٍ عـن إضافاتـه في مجـال العلـم الأيبوطـي، وقـال إنـه توصـل إلي أشـياء لم يتوصـل إليهـا أحـدٌ مـن قبـل.. ثـم تواضـع قائـلًا:

- أخمن أنك أحد المعجبين بي.
- أنا مؤمن بالعلم يا سيدي.
- هذا أمرٌ يُسعدني.
- ومـن رأيـي أن نـزرع حـب العلـم في نفـوس النـاس منـذ طفولتهـم حتـى يتحـول إلى سـلوكٍ في حياتهـم وليـس إلى مجـرد كلامٍ للتظاهـر.
- رأي سديد.
- وقـد قـرأت في كتابـك أن الأرض تـدور في اتجـاه ضـد دوران السـاعة.
- هذا مكتوب في الكتاب.
- ولما كان هذا أمرًا عجيبًا فقد جئتُ للتأكد منك.
- هذا مكتوب.
- لكـن أحـد النـاس شـككني في احتـمال أن يكـون هنـاك خطـأ مـا.. انقلبـت سـحنته ورمقنـي في غضـب:
- هل أنت من أتباع الدكتور الحمار؟
- لا أعرف أحدًا باسم الدكتور الحمار!

- حقًّا؟!
- بالحقيقة لا أعرفه.
- إنه ذلك الجاهل الجهول الذي يدَّعي العلم أكثر مني وينافسني في تأليف كتب العلم الأيبوطي.. هل أرسلك لتنال من سمعتي وسمعة مؤلفاتي؟! هل أنت قريبه؟
- إطلاقًا.. لا.
- صديقه؟
- ولا صديقه.
- فأنت أحد مأجوريه.

وقبل أن أنكر ذلك أتى بحركةٍ قام على أثرها الكلب بالتحفز ضدي وظل يزوم في وجهي.. شعرتُ بالخوف لكن الكمامة في فمه طمأنتني، قلتُ:

- سيدي المؤلف- لا أطلب أكثر من الإجابة بنعم أو لا هل أنت متأكد من أن الأرض تدور ضد الساعة؟
- هذا مكتوب.
- فهل أنت متأكد منه؟

نهض وأحضر كتابًا ضخمًا يبدو أنه إحدى الموسوعات العلمية وقال:

- سترى أنني على صواب.

***كلب المؤلف يتدخل في المسألة:**

... وظل يبحث ويقلب بنرفزة ثم بحيرةٍ وعصبيةٍ، ولا أدري إن كان قد وجد الجواب أم فشل في ذلك، إذ كف عن البحث زهقًا.. فسألته:

- هل قرأت شيئًا؟

رد في غضبٍ:

- قرأتُ ما قرأتُ أيها البلطجي، ولا شأن لك به.. حتى لو كانت الأرض ساكنة!! تدور أو لا تدور!! ما شأنك أنت بهذه الأمور المعقدة؟!

ثم حرَّض كلبه ضدي فوقفتُ مزمعًا الفرار، فقفز بثقله نحوي وأرقدني تحته وظل يُحاول نهش جسدي لولا الكمامة.. حاولتُ النهوض ولكنه كان مدربًا.. فجاهدت في مقاومته زاحفًا ناحية باب الحديقة، بينما المؤلف يتوعدني مقسمًا برئيسنا الديجم راعي العلم بأنه في المرة التالية سيرفع كمامة الكلب.. ورأيتُ أحد رجال "الهؤلاء" في الخارج فاستنجدت به لكنه وقف يتفرج على الموقف شغوفًا، ولم يُظهر أي تعاطفٍ معي، وإنما أبدى عظيم إعجابه بمهارة كلب المؤلف.

***البلف وقراءة الكف وأمور أخرى:**

وضع الجرسون أمامي فنجان القهوة الثاني، وللمرة الثانية نظر إليَّ مستريبًا.. كانت ملابسي متسخة ممزقة من مخالب الكلب الفظيع، وربما ظنني الجرسون متشردًا لا أملك حق ما أشرب، لذلك دفعتُ حسابي وتعمدتُ ترك بقشيش كبير، أخذه ولم يشكرني ومضى..

أخذتُ أركز ذهني لأفكر بطريقة منظمة، واستغرقت في ذلك وقتًا لا أعرف قدره تمامًا.. إلى أن تنبهت على ورقةٍ تُلقى أمامي، قرأتها فوجدت بها ما يلي: "الواقف أمامك قارئ كف وفنجان متخصص ومنجم -يقرأ الطالع ويحسب المستقبل -الواقف أمامك هو أول عرَّاف يحسب الغيب على أسسٍ علميةٍ -شهادات من الخارج ودراسات متخصصة من بلاد نائية".

نظرتُ إليه فوجدتُ ملابس رثة فوقها لحيةٌ مشعثةٌ تُحيط بوجهٍ شاحبٍ وشفاهٍ مُتشققةٍ لا تُوجد إلا مع معدةٍ خاويةٍ.. أعطيته بعض المال القليل كمساعدةٍ فانصرف داعيًا لي..

وعدتُ أحاول التركيز في التفكير المنظم الذي كنتُ قد نويته.. فمرَّ بي ماسحُ أحذية ثم أحد الشحاذين من بعده بائعة المثلجات فمتسولة صغيرة ثم ضرير ثم رجل يُحادث نفسه بصوتٍ مرتفع -ولم يكن هناك من يبتسم

-ثـم وضـع رجـلٌ أمامـي ورقـةً صفـراء قـرأتُ فيهـا مـا يـلي: "حبـوب الأرواح -مقـوي ومفيـد يزيـل الرطوبـة أكيـد -مـن إحليـل التمسـاح وجملـة أعشـاب لا يمكـن الحصـول عليهـا -يمنـع ارتخـاء الأعصـاب عنـد الشـيوخ والشـباب- يُسـاعد في الواجبـات الزوجيـة ويشـعر آخـذه بلـذةٍ لم يسـبق لهـا مثيـل -مسـجل بـوزارة الصحـة والحيـاة الأيبوطيـة تحـت رقـم سري -فاطلـب العلبـة مـن مـوزع الإعـلان قبـل نفـاده".

أعـدتُ إليـه الإعـلان مشـمئزًّا، وعندمـا انـصرف لاحظـت عـن قـرب رجـلًا بعـين جاحظـة يجحـظ نحـوي فكرهـت كل شيء ونهضـت.. وبعـد أن ابتعـدت نظـرتُ خلفـي فوجدتـه يتتبعنـي فقـر رأيـي أن أُفقـده أثـري، موقنًـا أنـه أحد الهـؤلاء..

وأخـذتُ أراوغـه في منحنيـات المدينـة حتـى اختفـى تمامًـا مـن ورائي.. لكننـي فجـأة وجدتـه أمامـي.. (قـد يكـون واحـدًا آخـر شـبهه).. فجريـتُ بأقـصى سرعـة وظللـت أجـرى حتـى سـمعت هديـرًا صاخبًـا يبـدو وكأنـه صـادرٌ مـن آلاف الحناجـر الصارخـة، ففرحـتُ وقلـتُ أسـتجير بهـم، وتوجهـتُ نحـو الصـوت..

*الزمن الضائع:

وجـدتُ الأصـوات الهـادرة تنبعـثُ مـن داخـل بنايـة أسـمنتية عملاقـة شـبه دائريـة، كأنهـا بيـت الغـول.. وكانـت

هنـاك سـياراتٌ كثـيرةٌ مـن شـتى الأنـواع والألـوان وشـاحنات ضخمـة مكتـوب عليهـا: "شرطـة أيبـوط -فِـرق تفريـق المظاهـرات المعاديـة"..

بقلـبٍ واجـفٍ دخلـتُ، وكلـما ارتفـع الهديـر البـشري في أذني كلـما تراقصـت أحاسـيسي.. يُمكننـي الاحتـماء بالنـاس -هكـذا فكـرت -وإن وجـدت فرصـةً شرحـتُ لهـم الأمـر كلـه وربمـا تمكنـت مـن إقناعهـم.

ثـم بـدأ يتكشـف لي تدريجيًّـا فـإذا بي في ملعـب لكـرة القـدم!

تقدمـتُ مذهـولًا إلى وسـط الإسـتاد.. عـشرات الألـوف مـن المتفرجـين المنقسـمين إلى جانبـين، كل جانـب يصيـحُ في وجـه الآخـر!.. ورجـال الأمـن متحفـزون بالـدروع في مواجهـة المدرجـات..

تنبـه إليَّ اللاعبـون واحـدًا تلـو الآخـر، ثـم الحَكـم وكان ممتقـع الوجـه، ثـم وجـدتُ نفـسي في مواجهتهـم.. ويبـدو أن المتفرجـين تنبهـوا كذلـك إذ بـدأ الهـدوء يُخيـم تدريجيًّـا، وجـاء صمـتٌ رهيـبٌ أصابنـي بالرعـب.. وكل العيـون تنظـر نحـوي!!

تمالكـت وبـدأت أتكلـم، وللأسـف فقـد كان صـوتي ضعيفًـا، كنـتُ في حاجـةٍ إلى مكـبر صـوتٍ كي يصـلَ صـوتي إلى هـذه الألـوف الغفـيرة.. وكنـتُ أتكلـم بالصـوت والإيمـاءة، وأشرتُ إلى سـاعتي أكـثر مـن مـرةٍ ثـم إلى رأسي، ثـم عـدتُ أركـز الإشـارة

إلى الساعة فعادت الجماهير تزوم!!.. وحدث أمرٌ عجيبٌ: أحد الجانبين هلل مؤيدًا وهاتفًا لي! فلما توجهتُ نحوهم سعيدًا لأشرح لهم كل الأمور إذا بالجانب الآخر يزوم ضدي ويُلقي نحوي بأكوامٍ كبيرةٍ من الطوب وقشر البرتقال وزجاجات الكازوزة الفارغة!!

وعند هذا الحد جريت هاربًا.. إلى الشارع، وأنا في حيرةٍ من أمري ومن أمرهم!!

***جاحظ العينين يُفسر بعض ما غمض من الأحداث السابقة:**

ظللتُ أجري وأجري مبتعدًا عن بناية الأسمنت الهائجة بالأصوات البلهاء، داخلًا إلى شوارع تُحيطها البنايات العالية من كلا الجانبين، إلى أزقةٍ ضيقةٍ خاليةٍ من الناس.. حتى اطمأننت إلى أنني لم أعد مُطاردًا، وكنتُ ألهث فوقفتُ أستريح وأغمضتُ عينيَّ أريحهما، لكني تنبهتُ على سماع أنفاس خافتةٍ عن قربي، رغم أنني لم أسمع خطواتٍ تقترب، فتحت عيني..

كان جاحظ العينين (أو بديله) يرسم ابتسامةً لزجةً.. قال:

- لقد أثرت فتنة بين جمهور الكرة حاولت دفعهم إلى التفكير!! حملقت إليه.. قال:

- هذا اتهامي لك: لقد أحدثت وقيعة بين الكرويين وهم كائنات مسالمة لا تبغي غير التسلية التي لا تُجهد الذهن.

وأخذ يشرح في رتابة -والعهدة عليه- أن المباراة كانت قد وصلت إلى نقطةٍ حرجةٍ، وكان الحَكم في حيرةٍ من صحة إحدى الرميات وكان يتشاور مع مساعديه إن كان هناك وقت ضائع أم لا.. والذي حدث في تلك الآونة أن دخلتُ أنا وظللتُ أشير بإصبعي إلى ساعتي، وإشاراتي هذه هي التي جعلت الجميع يصمتون ظنًّا منهم أنني أدلي برأيي في مسألة الوقت الضائع.. لذلك هلل الجانب الذي يرى أن إطالة وقت اللعب في صالح فريقه، وانهال الجانب الآخر عليَّ بالسباب.. وبعد هروبي تطاول بعضٌ من هنا على بعضٍ من هناك وقامت معركةٌ عظمى أدت إلى إصابة أحد كبراء الأمن بحجرٍ في أنفه فانبعج..

ثم وضع الجاحظ إصبعه في وجهي:

- سوف تتحدث صحافته الحرة غدًا عن فتنة بين أهالي الكرة أنت مثيرها!

***وشوشة الحبيبة:**

كنتُ بشقتي وقلتُ أتوب عن الفضول وعن حث الناس على التفكير.

أغلقت الباب جيدًا وتأكدت من جميع النوافذ.. وبعد أن أطفأتُ جميع الأنوار رحتُ أحاول نسيان ما أصابني من عنتٍ وتعبٍ، بتذكر وجه حبيبتي واسعة العينيْن.. فبدأتُ أسمع همساتها الرقيقة في أذني، توشوش فيها بكلمات الحب، وتُعطيني شفتيها في قبلاتٍ راغبةٍ دافئةٍ.. وشيئًا فشيئًا ومن بين الظلام تجسدتْ لي، بابتسامتها الساحرة ذات الغمازتين، وجاءت إلى جواري ورحتُ أفك ضفيرتها لينسدلَ شعرُها طويلًا رائعًا فوق كتفيها الناعسين، وأخذتها في حضني وصرنا نتقلب معًا حتى انتشينا وتهادينا في نومٍ هادئ قرير بعد أن أطفأنا النور..

***الجاحظون:**

... لكني تيقظت فجأةً على اللمبة مضاءة.. وبعد أن زالت غشاوة النور المباغت فوجئتُ بسبعةٍ من رجال الهؤلاء يُحيطون بسريري -أظنهم ثمانية -وكان الوقت ليس كالنهار وليس كالليل.. وكانوا جميعًا من ذوي العيون الجاحظة الذين قال أكثرهم جحوظًا:

- باسم رئيسنا الديجم العادل ستأتي معنا.

جلستُ غير مصدقٍ.. فكرر قولته السابقة.. وقلت له:

- هل أنا متهم يا سيدي؟!
- فلتنهض معنا!

احتججت:

- بأي حق تدخلون دون استئذان؟!
- إن لم تنهض أخذناك قسرًا.
- فأي تهمة موجهة لي؟!
- لا نعرف.. الرؤساء يعرفون.

لم أتحرك من مكاني.. قال في عجبٍ:

- لماذا أنتم قلقون هكذا أيها الشباب؟!.. لكل إنسان تهمة، ولكل تهمة أدلتها.. دع القلق وانهض معنا وصدقني بأن لكل إنسان تهمة وأن لكل تهمة أدلتها.

*قالوا قديمًا:

نهضتُ وفتحتُ النافذة فلم يُمانعوا.. وفوجئت بجو خانقٍ لم أعهده من قبل: ضباب ثقيل يخفي السماء، رطوبة كثيفة بللت ملابسي.. بالكاد رأيتُ الشارع، ولدهشتي لم أجد نفس الشارع الذي ألفته، كان مغايرًا

تمامًا خاليًا من كل دلائل الحياة، تتوسطه على غير العادة بركة طين يتمرغ فيها حمارٌ أجرب!! وعند مدخله سيارة الهؤلاء.. والمنازل المقابلة ليست منازل الأمس!!..

احترتُ في نفسي: لا أعرف هذه الجدران، ولا رأيت من قبل هذا الشارع ولا هذا المُناخ القاتم، ولا هذه الغرفة.. فأين أكون؟!

شعرتُ بكف تهزني من كتفي.. ورأيتُ عينًا جاحظة واحدة من أسفلها ما يشبه الفم وسمعت صوتًا يُنبهني:

- لا تتلكأ ولا تضع الوقت.. ألم تسمع عن الحكمة القائلة بأن الوقت من ذهب؟!.. وراءنا غيرك.

وكنتُ قد سمعت عن هذه الحكمة في المدرسة قديمًا فتوجهتُ معهم.

الفصلُ الثاني
الرجلُ المضغوطُ

***غرفة الرجل المضغوط:**

استطعتُ أن أحصي في الغرفة سبعة تليفونات ذات ألوانٍ مختلفةٍ، وكانت هناك أزرارٌ أخرى من أماكن شتى.. ورغم وجودي منفردًا بالغرفة إلا أنني كنتُ أشعر بأن هناك عيونًا كثيرةً تُراقبني.. تفحصت السقف والجدران -كلما رفعت رأسي وجدتُ صور الديجم تغطي الجدران -والأثاث فاخر.. لكنني مللت من كل ذلك..

مر وقتٌ طويلٌ ثقيلٌ وأنا وحيد بالغرفة، بين القلق والحنق.. ثم بين السأم والضيق حتى شعرتُ بالصداع وبأن الدماء ستنفجرُ من أنفي.. ثم فتح الباب بهدوء ودخل رجل مضغوط القامة بنظارة سوداء، حياني في أدبٍ

جـم ثـم سـار نحـو المكتـب فلـم يصـدر عـن حذاءيـه أي صـوت.. وعندمـا جلـس توقعـت أن يغـوص معظـم جسـده خلـف المكتـب، لكنـه بـدا وكأنـه طويـل القامـة، وأدركـت أن الـسر يكمـن في ارتفـاع المقعـد الـذي عـوض انضغـاط قامتـه.. وحيـاني مـرة أخـرى.

عندمـا وضعـوني في هـذه الغرفـة كنـتُ ثائـرًا غاضبًـا أريـد أن أعـرف سر إحضـاري قـسرًا إلى هـذا المـكان.. ولمـا طـال الانتظـار صرتُ حانقًـا عـلى التـمادي في أهـمالي وغـاب عـن بـالي مـا سـبق أن رتبتـه مـن عبـارات الاحتجـاج والاسـتنكار.. ثـم زاد الانتظـار فجـاءني الملـل وكبـس عـليّ النـوم وصرتُ عـلى اسـتعدادٍ لفعـل وقـول أي شيء للخـروج مـن هـذا المـكان السـقيم بـارد الأثـاث..

خلـع الرجـل المضغـوط نظارتـه السـوداء فاكتشـفت جحـوظ عينيْـه، وذكـرني بالهـؤلاء الذيـن اقتحمـوا عـليّ نومـي وأحلامـي، وعـلى الفـور استشـطتُ غيظًـا وعـاودني الغضـب ودبـت الحميـة في عروقـي، فاسـتجمعت شـتات نفـسي واعتدلـت لـه متحفـزًا:

- سيدي بأي حق تحضروني هنا وأنا مواطن شريف؟!

ارتدى نظارته وقال:

- أبدأ فأرحب بك.. أي مشروب تطلب؟

- لا أطلب إلا معرفة التهمة الموجهة لي..

لاحظ غضبي الشديد، فأشار بكفه كي ألزم الهدوء وهو يهمس:

- اسمح لي أن ألفت نظرك إلى أمر مهم من أمور الحياة والصحة قد تجد فيها عبرةً ما..

***عبرة من عبر الحياة:**

ثم ضغط على زرار أمامه فانطفأت الأنوار وانزلقت أمامي شاشةٌ صغيرةٌ رأيت فوق سطحها عرضًا سينمائيًّا قصيرًا، لشاب قلقٍ جدًّا، يتقلقل في جلسته آخذًا أوضاعًا عصبية قارضًا أظفاره أحيانًا، وفي لقطات وجهه المكبرة رأيت عضلاته تتقلص بشكلٍ غريبٍ شوهت سمنته إلى صورةٍ غير مألوفةٍ!

انتهى العرض وقال المضغوط:

- ألم تلاحظ أمرًا مهمًّا؟

- لاحظت أن هذا الرجل يُشبهني، فقد كان جالسًا على هذه الأريكة وفي نفس هذه الغرفة..

- إنه أنت بالفعل، وهذا الشريط قد التقط لك أثناء انتظارك.. لكن الغضب والقلق أفسدا سحنتك وجعلا

منظرك يبدو في هذا الشكل!! وهذا يعلمك ألا تغضب أو تقلق!

لكني رغم هذه العبرة انفجرتُ فيه طالبًا معرفة تهمتي.. فاستدار بمقعده الدوار وأعطاني جانب جسده..

***متي يتبدل سلوك المواطن؟**

.. وبعد صمت ثقيل قال في تباطؤ:

- حتى الآن لا نعرف ما هي تهمتك على وجه التحديد وقبل أن أعلق قال:
- لكن من المؤكد أنك متهم..

ثم شرح الأمر:

- لاحظنا أنك طوال الأيام الماضية كنت تأتي بتصرفاتٍ غير عادية، والمشاهد أنك قمت بتحركاتٍ مريبةٍ.. وقد تجمعت لدينا معلومات كثيرة من "عيوننا" وهم كثيرون ومختبئون في كل شبر من أركان أيبوط الآمنة، ومن "آذاننا" وهم أوسع انتشارًا لصق أبواب البنايات وتحت أسِرَّة النوم.. وجميع هذه المعلومات- لا تقاطعني من فضلك -وجميع هذه المعلومات تفيد بأن سلوكك قد خرج عن حدود المألوف.. وبحكم خبراتنا في حماية الأمن فنحن نعرف أن المواطن لا

يتبدل سلوكه إلا في حالتين: أولًا عند فشله في الحب ومروره بأزمةٍ عاطفيةٍ حادة يصعب عليه حلها أو مواجهتها، وثانيًا عندما يرسخ في ذهنه القيام بعمل غير مشروع، أي يكون في نيته ارتكاب بعض الحماقات ضد دولة أبيوط الفتية وضد زعيمها الديجم المحبوب.. لا تُقاطعني من فضلك...

***الاتهام:**

.. صمت ثم شرب بعض الماء وعاد إلى صوته الرتيب:

- بحثنا عن حالاتك العاطفية فعرفنا أنك بريء منها فأنت ناجح مستريح مع الجنس اللطيف، لك عشيقة خمرية اللون واسعة العينين ممتلئة الشفتين بضفيرة طويلة، طولها ١٦١ سنتيمترًا، ووزنها حتى الأمس ٥٨ كيلو جرامًا، تظهر لها غمازتان في خديها عند الابتسام.. وإليك بعض صورها..

ثم مد يده بمظروفٍ مليء بالصور، جميعها لحبيبتي، سائرة في الطريق أو منهمكة في عملها أو جالسة في المترو أو في بيتها!!..

حملقتُ نحوه جزعًا، فضحك في لزوجةٍ ملوحًا بمظروفٍ آخر مغلق وصوته يفح كالثعبان:

- وهنا صور لها معك عارية فوق سريرك في أوضاع غرامية مثيرة.. وعلى فكرة فإن في روعة جسدها وفي بشاشة وجهها الدليل القاطع على تمتعك بذوق ممتاز وحسن اختيار موفق.. عزيزي أنت ذواقة للجمال من الطراز الراقي.. وعلى فكرة فإن ذوقك في الجنس اللطيف يكاد يُطابق ذوقي إلى درجة مذهلة!!

منعني انفعالي من النطق بأي كلمة.. فأعاد الصور والمظروف إلى مخبئها، ثم اعتدل مستمرًّا في كلامه:

- وعلى ذلك فإن الاحتمال الأول وهو أن تكون متورطًا في أزمةٍ عاطفيةٍ حادة لا ينطبق عليك.. وتصبح متهمًّا بالاحتمال الثاني، وهو أنك تنوي القيام بعملٍ ضار من أعمال الرعونة والطيش، وهذا ضد القانون.

تماسكتُ بصعوبةٍ:

- كيف تعرف ما يدور في ذهني ونيتي حتى تُحاسبني عليه؟!
- أعتقد أنني عرضتُ عليك أفكاري مرتبةً ترتيبًا منطقيًّا.. ليس بإمكانك أن تُنكر أن تفكيري معك كان علميًّا..
- وأنا أرفضه رفضًا كاملًا.

- هـذا حقـك.. وأنـا عـن نفـسي غـير متمسـك بـه، معـروف عنـي المرونـة.. ولكـن أليـس مـن واجبـي أن أمنـع الجريمـة قبـل وقوعهـا؟

- ... ...

- ألا ترد؟!!

تماسكت.. قال:

- نبـدأ خطـوة بخطـوة: الوقايـة خـيرٌ مـن العـلاج، أصـواب هـذا أم خطـأ؟

- صواب.

- فيكـون مـن الأجـدى أن نمنـع الفـرد مـن الانحـراف بـدلًا مـن أن نمسـكه بعـد ارتكابـه الآثـام.. أصـواب هـذا أم خطـأ؟

- الـكلام في حـد ذاتـه صـواب ولكنـه لا ينطبـق عـلى حالتنـا هـذه.. لا يمكنـك معرفـة مـا يـدور في ذهنـي..

- ومـع ذلـك فلننـس كل ذلـك، وأعتـبر أننـي لم أقلـه لـك، معـروف عنـي المرونـة.. وأنـت حـر ولـك مطلـق الحريـة، وكل الشرائـع تكفـل لـك هـذا، ومـا نحـن إلا منفـذون..

نهضتُ منصرفًا:

- أشكرك.

لكن صوته أمر:

إجراء شكلي لا أكثر:

قال الرجل المضغوط:

- انتظـر.. إجـراء صغـير أتخـذه معـك وتنـصرف إلى بيتـك عزيـزًا مكرمًـا، وإلى حضـن حبيبتـك المثـيرة التـي أحسـدك عليهـا..

جلســت.. ظــل صامتًــا، لكنــي ســمعت حفيفًــا غامضًــا مــن قــربي، توتــرتُ تمامًــا ثــم أدركــتُ أنــه مــن هــزات ســاقى العصبيــة.. قــال:

- وستنتهي من هذا الإجراء الشكلي بأسرع السبل..

*براءة الماضي وعذاب الحاضر:

سألته عن هذا الإجراء الشكلي فقال:

- لا تؤاخذني.. العمل هو العمل، أصواب هذا أم خطأ؟
- صواب.. وبعد؟
- علينا أن نتأكد من أنك بريء فيما مضى بريء الآن!

تململت:

- وكيف يكون ذلك؟!

- لنا ملفاتنا الخاصة وسجلاتنا وصورنا المأخوذة للمجرمين السابقين من شتى الزوايا وفي غاية الدقة، ولا تؤاخذني إن بحثنا فيها للتأكد من أنك لست متهمًّا فهل تسمح؟
- لكم هذا.. ولكن أسرعوا!
- فعلنا معظم ذلك بالفعل أثناء انتظارك الطويل، فلم نجد عليك أية شائبة..
- حسنًا.. الوداع.
- دقيقة لو سمحت، فلقد وجدنا بين آلاف الصور التي نقتنيها صورة لأحد المجرمين قريبة الشبه منك.
- ما اسمك؟
- دعك من الأسماء فمن السهل تغييرها.

ولما رأيت الصورة أصبت بصاعقةٍ إذ كانت لرجل أعور!! صرختُ مستنكرًا:

- لكن هذا أعور!
- دعك من هذا أيضًا، فأنت تعرف أن العلم قد تقدم في جميع الفروع، ومنها علم الماكياج والتنكر.

قلتُ مغتاظًا:

- وبهـذا المنطـق فمـن الجائـز أن تكـون هـذه الصـورة لـك.. ضحـك وقـال:
- مرحٌ أنت!! ومرنٌ أنا!!

***حرية الدياجم:**

وقفتُ صارخًا:

- أيها السيد كفى إهاناتٍ، كفى!! أطلق سراحى!
- عزيـزي.. أرجـوك، لا تنـس العـبرة التـي قلتهـا لـك.. هـدئ نفسـك، إننـا نهـوى الحريـة جـدًّا إلى درجـة أننـا كثـيرًا مـا فرضناهـا عـلى الأهـالي قـسرًا.. فاطمـئن، وقـرَّ عينًـا..

لكل رجل زرار: حكمة أيبوطية:

.. ثـم وقـف المضغـوط وضغـط عـلى أحـد الأزرار الكثـيرة، فدخـل عـلى الفـور رجـل حـاد النظـرات في ملابـس مدنيـة يحمـل حقيبـة سـوداء.. تقـدم بالتحيـة، فأمـره أن يقـف قـرب البـاب ثـم اسـتدار لي مبتسـمًا وهـو يعـود إلى الجلـوس فـوق مقعـده الـدوار:

- سـيكون هـذا الرجـل مندوبًـا لي، وهـو لطيـف.. أليـس كذلـك؟
- أمر لا يهمني.

- وشديد الأناقة أيضًا.
- لا شأن لي.
- ولتكن واثقًا أنه بالإضافة إلى ذلك فهو خفيف الظل لطيف المعشر

صار الأمر لا يُطاق فغلي الدم في نافوخي فلم أقدر على الكلام.. وفي هدوءٍ عاد يقول:

- يزعم بعض المحققين السذج بأن الصور لغةٌ عالميةٌ لا تكذب، ولكن هذا خطأ شديد.. فلقد اتفقت أنت معي توًّا بأن هذه الصورة التي أمامي الآن يُمكن أن تكون لك أو لي أو لهذا الواقف عند الباب.. أصواب أم خطأ؟
- خطأ.
- هذا احتمالٌ واحدٌ.. الاحتمال الثاني أنه صواب.. فكل أمور الحياة يمكن أن تكون خاطئة وفي نفس الوقت صائبة..
- فليكن هذا أو ذاك، خلصني وحدثني عن هدفك!

***وحدك أو بصحبة الأنثى الفاتنة:**

تقدم مندوبه الواقف عند الباب مني وأوقفني بينما المضغوط يقول في لهجةٍ باترةٍ:

- سيأخذك هذا الرجل مندوبًا عني في طوافٍ سريعٍ إلى جميع مخافر الشرطة المنتشرة في أنحاء أيبوط.

أمسكني المندوب من معصمي.. قال المضغوط:

- وسوف يضمن مندوبي الأنيق هذا أن يتم لك في جميع هذه المخافر عرض قانوني للبت إن كنت مطلوبًا في إحداها أم لا.. تعرف أن الاتصالات الشخصية أجدى وأسرع..

وقبل أن أنطق جرني المندوب صوب الباب.. ابتسم المضغوط:

- وفي حالة ما إذا كنت غير مطلوبٍ في أي منها فأنت -كما تزعم- حر شريف، ومن حقك الذهاب إلى أي مكان يخطر لك وحدك أو بصحبة الأنثى الفاتنة التي أحسدك عليها.. وبذلك تتحقق العدالة ونكون قد حمينا الأهالي الشرفاء.. أليس كذلك؟

***الهوة في كل خطوة تالية:**

جـرني المنـدوب غصبًـا وأنـا أكاد لا أصـدق.. إلى أن وجـدتُ نفـسي في ممـر خـارج الغرفـة، ظـل ينحـدرُ وينحـدرُ حتـى صـار سردابًـا يُـردد صـدى خطـوات المنـدوب ويُجسـد أنفـاسي المرتبكـة، فاقشـعر كل بـدني.. واختفـت معظـم فتحـات الإضـاءة، فتملكنـي دوارٌ مفاجـئ جـاءني بصـداعٍ ثقيـلٍ، وصـار الـسرداب معتـمًا تمامًـا، والمنـدوب يدفعنـي أمامـه.. فارتعشـتْ قدمـاي وظللـت أتوقـع الهـوة في كل خطـوة تاليـة.

ثـم دخـل في روعـي أننـي أسـير بقدمـي إلى أعـلى ورأسي مـدلى إلى أسـفل، تخيلـتُ نفـسي مقلوبًـا في هـذا الوضـع ورأيـتُ أنـه غريـبٌ مضحـكٌ فضحكـتُ وردد الـسرداب ضحـكاتي، لكنـي بعـد أقـل مـن البرهـة بـدأتُ أشـك أن صـوت هـذه الضحـكات هـو صـوتي أنـا.

الفصلُ الثالثُ
طوافُ المخافرِ

***جزءٌ مما حدث في المخفر الأول:**

بين الدوار والضيق في بحر الظلام ظللنا نتلمسُ طريقنا، حتى لاحت لنا مساحةٌ من الضوء الأزرق الخافت تُشكل فتحةً مستطيلةً بين درفتي باب موارب.. دخلنا في صمتٍ لنجد الركود وصوت أنفاق خافتة، وشرطي يغط في النوم ساندًا رأسه فوق ترابيزة المخفر، ومن فوقه صورة "الديجم".. فتح عينه اليمنى ثم أغمضها وزام فسأله المندوب:

- هل تعرف هذا المواطن؟

ودون أن يفتح عينيه:

- لا.

أهو مطلوبٌ لديكم في أية تهمة؟

لا.

- أواثق من كلامك؟
- نعم.. اتركني!

ولما طلب المندوب منه أن يكتب هذا الكلام ويوقعه ويمهره بخاتم المخفر الرسمي، أفاق الشرطي وظل يتفحصني، نهض وأضاء عدة لمبات إضافية وحام ودار حولي ولم يبد عليه أنه يعرفني فجلس ليكتب "شهادة براءة" لي.. لكنه قبل أن يُوقع تردد وقال للمندوب:

- توقيعي وحده لا يكفي، تعرف هذا!

سألته:

- ألست مسئولًا عن هذا المخفر؟
- لا تسأل أنت.. وعلى كل حال فأنا لستُ وحدي هنا، يُشاركني ثلاثة زملاء آخرين ولا بد من الحصول على توقيعهم قبل مهر الشهادة بخاتم المخفر..
- وأين هم الآن؟
- واحد يأتي بعد نوبتي، والثاني بعد انتهاء نوبة التالي لي والثالث بعد التالي للتالي لي.. فلكل واحد منا ربع يوم ثم وقع.. وقال لي:

- بتوقيعي هذا فأنت بريء في ربع اليوم الواقع في اختصاصي.. ناقص إثبات براءتك في ثلاثة أرباع اليوم الباقية.

وعاد يركن رأسه فوق الترابيزة لينام، فسأله المندوب عن مكان نبيت فيه.. أشار له إلى أريكة قريبة، أما أنا فقد فتح بابًا ثقيلًا أدخلني منه وأغلقه من ورائي..

***في الحبس:**

.. بعد أن تعودتْ عيناي على الضوء الخافت تبينتُ أنني في غرفة الحجز، أدركتُ ذلك من كثرة المحجوزين داخلها، من شتى الأعمار.. منهم من استلقى بجوار الحائط ومنهم من جلس محملقًا، وعجوز واقف في صمتٍ قرب الكوة الحديدية..

حدثتُ نفسي أن أكون حذرًا وأنا بين أربعة جدران مع عشرات من المجرمين، ولعنتُ في سري جميع الهؤلاء الذين أحضروني إلى مثل هذا الوكر الموبوء..

تراجعتُ خطوةً فكدت أتعثر في كومةٍ ما خلفي، تلفتُّ متحفزًا فوجدتُ أسفلي وجهًا لصبي ينظر لي من عينين مليئتين بالدموع وقد تقرفص متكومًا يرتعشُ..

انزويت قرب الباب وأنا أحملق إليه فسمعت عن يميني من يقول:

- لم يكف عن البكاء منذ جاءوا به، فشلنا في تهدئته.
- ما تهمته؟
- مظلوم.. مثلي تمامًا..

هتف الشيخ الواقف عند الكوة الحديدية:

- الجميع تقريبًا مظاليم، وكم في الحجز مظاليم!

لكني حذرت نفسي أن ألزم الصمت وألا أدخل مع هؤلاء المجرمين في حديثٍ، إنهم خارجون على القانون بلا شك، وكل مَن في الحجز يدَّعي أنه مظلوم..

وبرغم رطوبة الأرضية ورغم الهواء الراكد العطن -أو ربما بفعل كل هذا -فقد غفوتُ في النوم لعدة ثوانٍ أو دقائق.. ولا أدري ما الذي جعلني أستيقظ عند الفجر هامسًا لنفسي :لكنني في الحجز الآن رغم شدة براءتي؟!

*أوصال البراءة:

جاء الشرطي الثاني وتفحصني مليًّا ثم وقَّع على وثيقة البراءة فصرتُ بذلك بريئًا في نصف يوم.. وبعده بست ساعات أخرى جاء الثالث ووقَّع فصارت براءتي

لثلاثة أرباع اليوم.. وبعد ذلك مرَّت ست ساعات أخرى بطيئة قاسية، اكتملت لي بعدها براءتي.. ومهرتُ الورقة بخاتم المخفر وتسلمها المندوب، الذي وقف على عتبة باب الخروج ثم قال لي:

- ليس هذا إلا مخفرك الأول..

***نظرًا للنجاح الساحق:**

سألتُ المندوب عن عدد المخافر التي يجب أن أُعرض عليها فقال:

- جميعها.
- كم عددها؟
- بالضبط لا أعرف، يتغير عددها كل يوم، فكلما تأكد نجاح المخافر الموجودة كلما أقيمت مخافر أخرى جديدة!.. وتلك هي رأس الحكمة..

دهشتُ وفي ذهني ليلة الأمس المزعجة وأرضية الزنزانة الرطبة فقلتُ:

- لعلك ارتحت في النوم ليلة الأمس؟
- لا بأس.

- أخشى أن يكون نومك فوق الأريكة الجلدية لم يكن مريحًا!!

أشاح دون اهتمامٍ.. ثم فهمتُ منه أنه سينال عن كل ليلةٍ يقضيها في رحلتنا هذه ما يُعادل أجر يوم إضافي وذلك كبدل مبيت، ولكنه سينام في المخافر من باب الاقتصاد.. قال:

- وبمجموع هذه البدلات التي سوف أنالها بسببك سوف يمكنني قضاء شهر في أفخم مصايف البحر مع امرأةٍ مثيرةٍ شهية..

قلتُ له إن ذلك يسعدني.. لكني في نفسي خشيتُ أن يتعمد إطالة مدة تجوالنا جريًا وراء المزيد من البدلات المالية.. وسألته في حذرٍ:

- كم تظن عدد الليالي التي تكفي بدلاتها نفقات شهر مصيفك مع المرأة المثيرة الشهية؟

فكَّر قليلًا ثم رفض الإجابة قائلًا بأنه يأنف عن الحديث في المسائل المادية الزائلة..

***ليس إلا:**

فتح المندوب حقيبته السوداء، وضع فيها ورقة البراءة الجديدة الممهورة بشعار المخفر الثاني فانضمت إلى الورقة الأولى.. وقال:

- وهذه ليست إلا براءتك الثانية.

ومضينا من حي إلى حي.. ودخلنا من أبوابٍ متشابهةٍ لتزكم أنفي ذات الرائحة، ولأبيت مع بعض المظاليم.. ثم لنخرج منها ثانية، وليتوقف المندوب على عتبة كل مخفر ويفتح حقيبته السوداء في حرصٍ شديدٍ ويضم ورقة براءتي الجديدة إلى الورقات السابقة.

تجشأ وقال:

- ليست هذه إلا براءتك الثالثة..

أغلق الحقيبة وقال:

- وهذه ليست إلا براءتك السابعة..

وفي المخفر العاشر تم عرضي على بعض المدنيين أيضًا وذلك بالإضافة إلى ضباط الورديات الأربعة.. وفي المخفر التالي شد أحدهم شَعري للتأكد من أنه حقيقي، وتحسس أحدهم صدري خشية أن أكون امرأةً في زي رجال رغم ذقني وشاربي الطويلين!!.. وفي ثلاثة مخافر على الأقل تم

توقيع الوثائق دون فحصي، والذي تلاهم، فعل المثل قائلًا إنه يثق في دقة الثلاثة السابقين..

ابتسم المندوب:

- وليست هذه إلا براءتك رقم ٢٣

وكلما زاد الرقم انتعشت نفسي وزاد سروري من دنو ساعة الخلاص من هذه الورطة الوضيعة، وتراقص أملي في اقتراب العودة إلى حضن حبيبتي واسترداد حريتي.. ولعنت دوران الأرض ودوران الساعات ودوراني أنا على المخافر الأيبوطية القذرة..

وفي نفس الوقت كنتُ ألاحظ تهلل وجه المندوب زيادة لياليه المستحقة لبدلات السفر وبعد أيام وعلى عتبة المخافر وقبل أن يغلق حقيبته، بادرته أنا:

- وهذه ليست إلا براءتي رقم ٣٩

فبرقت عيناه، ثم سرعان ما وضع قناع اللامبالاة.. ذهب بي إلى المخفر التالي وترتيبه الأربعون.

*بعض الخواطر حول رقم أربعين:

ونحن متوجهون إلى المخفر رقم ٤٠ أخذت أتذكر الرقم عند معظم الشعوب، فهناك علي بابا والأربعين -وهناك

الغرفة رقم ٤٠ في القصر المسحور والمحرم دخوله وهناك أيضًا الاحتفال بمرور الأربعين يومًا على الوفاة..

قال المندوب:

- بهذا المخفر سوف نترك هذه العاصمة ونطوف المخافر المنتشرة فوق أراضي أيبوط المترامية..

ولما تحرك بنا القطار الضخم بدأت المنازل تتراجع..

.. بيوت ضخمة يسكنها أناس في ثياب عصرية وأفكار عتيقة..

الخارج براق والداخل كهفٌ له سراديب مُظلمة معنكبة.

فوجئت بالمندوب يحذرني.

- لا تجدف..

فنظرتُ إليه فزعًا، ولم يكن يتأمل المناظر الخارجية ولا تلك البيوت الضئيلة التي أخذت تتباعد أيضًا.. لقد قام بمثل هذه الرحلات مراتٍ عديدةً ولا بد، ولا شيء جديد عليه إلا أنا.. سألته:

- ما رأيك في الذين صحبتهم من قبلي؟

فردَّ في اقتضاب:

- جميعهم أمثالك.

وسـكت.. فتذكـرتُ أمـرًا غريبًـا مـرَّ عـليَّ في محطـة العاصمـة..

***خلاصة الأمر الغريب:**

.. فعندمـا كنـا نتجـه إلى رصيـف قطارنـا لاحظـتُ تواجـد أزواج كثـيرة مـن الرجـال، وبعـض أزواج النسـاء!!.. رجـلان رجـلان أو امرأتـان امرأتـان!!.. وعـلى جميـع الأرصفـة التـي تتفـرق قطاراتهـا إلى أنحـاء البـلاد المترامية، فـماذا يعنـي هـذا الوضـع المعكـوس؟!.. رجـل مـع رجـل وليـس رجـل مـع امـرأة؟!

وللحظـات شـطح خيـالي إلى وجـود عَلاقـات جنسـيةٍ مثليـةٍ!!.. فهـل صـارت تلـك هـي القاعـدة بحيـث يُرافـق الرجـل ذكـرًا مثلـه وتمتطـي المـرأة أنثـى مـن نوعهـا؟!

لكـن زحمـة المـكان وهرولتنـا أطـارت الموضـوع مـن رأسي إلى أن تذكرتـه ثانيـة!!

وبعـد وقـتٍ حدثـتُ نفـسي بـأني ومرافقـي رجـلان فهـل معنـى ذلـك وجـود عَلاقـة جنسـية بيننـا؟!.. وعنـد هـذا الحـد تذكـرتُ أمـرًا آخـر أصابنـي بصـداعٍ ثقيـلٍ: تذكـرت أن مرافقـي كان يُحيـي أحـد أفـراد كل زوج ويتجاهـل الآخـر!.. كذلـك

فعـل مـع النسـاء، كان يومـئ رأسـه بتحيـةٍ مهذبـةٍ لإحـدى المرأتـين متجاهـلًا الأخـرى!

الآن أفهـم.. أن الذيـن حياهـم كانـوا يُشـبهونه إلى حـد كبـير، فهـم إذن مندوبـون مثلـه.. أمـا الذيـن تجاهلهـم فكانـوا يُشـبهونني إلى حـد المطابقـة: الحـزن والحنـق والإحسـاس بالقهـر.

هممـتُ بسـؤاله مـن بـاب التأكـد إن كان يوجـد رجـالٌ غـيره يقومـون بمثـل هـذا العمـل؟ فـإذا بـه يقـول مندهشًـا:

- طبعًا يا أخي!!
- معنـى هـذا -أنـه يوجـد متهمـون آخـرون غـيري يُطـاف بهـم الآن؟
- طبعًـا يـا أخـي.. هـل تظـن أنـك فريـد عـصرك؟! هـل أنـت مغـرور؟!

*لمـاذا كان المخفـر الأربعـون مختلفًـا عـن جميـع مـا سبقه ؟

قال المندوب:

- هـذا المخفـر رقـم ٤٠ يختلـف تمامًـا مـن ناحيـة أسـلوب ضابطـه في العمـل، فهـو شـغوفٌ جـدًّا بالكلاب البوليسـية، لا يثـق في آراء المسـاعدين مـن بنـي البـشر، يقـول دائمًـا

بـأن الإنسـان يكـذب بنفـس سـهولة تنفسـه، أمـا الـكلاب فهـي لا تكـذب ولا تخـون، وعـلى الأخـص كلابه البوليسـية التـي أحسـن تربيتهـا..

- أنا لا أكذب ومع ذلك فأنا إنسان!!

ضحك ثم سكت ثم ضحك:

- قـد تكـون صادقًـا في كلامـك.. ولكـن: أحقًّـا تعيـش عيشـة الإنسان؟

توقف وأحسن من هندامه:

- عـلى كل فأنـت في هـذا المخفـر لسـت بحاجـةٍ إلى الحصـول عـلى بـراءة عـن كل ربـع يـوم، سـتُعرض عرضًـا قانونيًّـا عـلى كلابـه البوليسـية، فـإن أفتـت جميـع الكلاب بأنـك بـريء انصرفنـا عـلى الفـور.
- هذا أريح.
- ألم أقل لك؟

***الكلاب الأعجمية:**

أوقفني ضابط المخفر في صف طويل من الرجال..

(عرفـت فيـما بعـد مـن المنـدوب بـأن عددهـم يكـون دائمًـا ٣٩).. وبعـد أن اطـمأن إلى اسـتقامة الصـف، وبعـد أن

قام بتفتيش كل واحد منا بحثًا عن شيء ما! (علمت فيما بعد أنه يخشى أن يدس أحد الرجال مواد نفاذة الرائحة تفسد من حاسة الشم عند الكلاب).. التفت الضابط إلى مرآة خلفه متأملًا أناقته طويلًا ثم أدى التحية لصورة أعلى المرآة تُمثل الديجم وتحت قدميْه كلبٌ هائلٌ، وبعد ذلك توجه إلى بابٍ مجاورٍ تنبعث منه موسيقى حالمة..

فتحه ونادى بصوتٍ رقيقٍ على اسم معين ليخرج إلينا كلب طويل السيقان ممدود البدن، مشى يتهادى نحو صاحبه الذي بادله نظرات الحب وربت على رأسه.. ثم أشار له فبدأ يشم رجال الصف واحدًا بعد الآخر، مرَّ سريعًا على المجموعة المتطرفة، وقبل الوسط تمهل أمام أحد الرجال فرأيتُ وجهه ينفعل ويحمر في سعادة!! ودهشت لأنه لم يُصب بالخوف بل لقد استاء عندما تركه إلى التالى فمن يلي التالي!!.. وهكذا حتى وصل عندي..

تشممني الكلبُ الهائلُ فتوترت أعصابي، ودقق في تشمم رائحة حذائي (الذي كان قد بدأ يتهرأ من طول المشي).. ثم ارتد إلى الخلف بحيث شملني كلي في نظرةٍ واحدةٍ، فعرقتُ وتوترتُ وعلى الفور قفز نحوي!!

زام الضابط:

- عظيم!!

ثم وضع إشارة في ورقة أمامه.. هتفتُ:

- إنني أعترض على هذه النتيجة.

فألزمني بالتزام الصمت.. وداعب كلبه وصرفه.. ثم استدار ليتأكد من هندامه قبل أن يُنادي على اسم آخر، ليخرج كلبٌ مبرطش الفم لا يكاد يعلو عن الأرض.. ركع له الضابط ليقبله ثم أعطاه أمر البدء، وبدون مجهودٍ يُذكر هجم عليَّ الكلب القميء!

أردتُ أن أعلن احتجاجي فأنذرني بالجلد.. وتكرر ما حدث مع سبعة كلاب أخرى، لكل واحدٍ منظره وطوله وارتفاعه وطريقته الخاصة في الهجوم نحوي والأخذ بتلابيبي!!.. وعند ذلك جاهرتُ محتجًّا:

- أنا لست مجرمًا.. لستُ مجرمًا.

اندهش الضابط:

- ومَن قال ذلك؟! إن فحصك لم يكتمل بعد!!
- ولكن جميع هذه الكلاب اللعينة...
- حذار أن تُخطئ في حقها.. إنها كلابٌ أعجمية ليست من ملتي وليست من ملتك فهي منزهةٌ عن التحيز.

ثم أمر بإدخالي إلى زنزانةٍ صغيرةٍ لها أربع درجات تحت سطح الأرض، وأدهشني أنه لم يصرف الرجال الآخرين الذين لم تطلبهم الكلاب بل أدخلهم زنزانةً أخرى واسعة الباب..

وقـد أفهمنـي المنـدوب بـأن هنـاك مجموعـةً أخـرى مـن الـكلاب لا بـد أن أُعـرض عليهـا، وأنهـا لم تتمكـن مـن المجـيء لأسـبابٍ مختلفـةٍ -وهـذا مـن سـوء حظـي -فواحـد منهـا أصيـب باكتئـابٍ نفـسي وآخـر تأخـر في النـوم ولم يجـرؤ أحـدٌ عـلى إيقاظـه..

وعندمـا أغلقـوا البـاب مـن ورائي وجـدتُ نفـسي في ظـلام أكيـد..

الفصلُ الرابعُ
نقوشُ المخفرِ الأربعين

في البدء...

وجـدتُ الزنزانـة صغـيرةً معتمـةً، عـدا بقعـةٍ ضيقـةٍ مـن نـور النهـار منسـابةٍ إلى الحائـط مـن كـوةٍ صغـيرةٍ علويـةٍ. ولا شيء آخـر إلا الظـلام والرطوبـة والصمـت..

جلسـتُ عـلى الأرض قـرب شريـط النـور الواهـي، حانقًـا مقهـورًا.. ظننـتُ أننـي سـأنتهي مـن هـذا المخفـر بسرعـةٍ، وأنـا الآن لا أدري متـى تشـفى كلاب الضابـط مـن وعكتهـا، ولا متـى تنعـدل نفسـية الكلبـة المكتئبـة مزاجيًّـا؟!

والمؤكـدُ أن أمـلي في النجـاة صـار ضئيـلًا بعـد أن تعرفـت عـليَّ جميـع الـكلاب السـابقة، واعتراضـاتي عـلى خطئهـا لـن تُجـدي لأن صاحبهـا لـن يُصدقنـي ليكذبهـا!!

حاولتُ الهروب من واقعي الثقيل إلى ذكرياتي اللطيفة، بلا جدوى!.. لكني-وبمجرد أن جاءني من الطريق صوت الناس والعربات والأطفال والباعة -وجدتُ صوت حبيبتي يُداعب سمعي.. ترى أين هي الآن؟! كان موعدي معها الليلة التي أخذني فيها (الهؤلاء).. كم أحن إلى همسات حبها وأناملها الناعمة تُداعب شَعري في ود.. لكني تخوفت من تلميحات الرجل المضغوط عنها، ومن صورها التي يحتفظ بها داخل المظروف..

نكستُ رأسي.. ولوهلةٍ خلتُ أنني سمعتُ صوتًا قريبًا، حملقت في الظلام فلم أجد شيئًا لافتًا.. وتمنيت لو تمكنت من النظر إلى الشارع من الكوة العلوية..

ثم لفتت نظري كتاباتٌ محفورةٌ على الجدار الساقط عليه شريط النور، وأدهشني أنها تبدو حديثة الحفر!.. فهل هناك من يُشاركني هذا الحجر الآن؟! وهل يكون نائمًا الآن؟!.. همستُ:

- هل من أحدٍ هنا؟

انتظرتُ ولم أسمع، فرحتُ أحاول قراءة النقوش المحفورة، وكان الأمر صعبًا لرداءة الخط، لكني ميزت بعضها: "انظر!.. في البدء كذب الدياجم"..

وقبـل أن أحـاول الإكـمال رأيـت ظـل شـبحٍ يقطـع شريـط النـور متحـركًا، رفعـتُ رأسي إلى الكـوة فلـم أجـد أحـدًا، ثـم سـمعتُ الأنفـاس إلى جـواري، ورأيـت الرجـل..

..* ومنذ الأزل:

تراجعـتُ منزعجًـا، وكان ظهـره للنـور فلـم أكـد أراه إلا شـبحًا.. تحايلـتُ مسـتديرًا مـن حولـه في نصـف دائـرةٍ بحيـث دار معـي فجـاء النـور في وجهـه ورأيتـه.. ويـا للعجـب: بصعوبـةٍ يتأكـد المـرءُ أن هـذا في الأصـل كان وجـه إنسـان!!.. سـألته:

- من أين دخلت؟!

قال:

- من أين أنت دخلت؟! أنا موجودٌ هنا منذ الأزل..
- منذ الأزل؟!
- هكـذا أشـعر.. أليـس الإحسـاس بالزمـن نسـبيًّا يختلـفُ مـن إنسـانٍ لآخـر حسـب المـزاج الخـاص والواقـع المُحيـط؟!

وكان مشـعث الشـعر والذقـن وصوتـه مرتجفًـا وجسـده دائـم الاهتـزاز:

- عندما تمكث طويلًا وحدك في مثل هذا الجُحر فإنك ترتبك وتفقد قدرتك على الإحساس بالزمن وعلى تمييز الاتجاهات، ويختلط الماضي بالحاضر والوهم بالواقع، وتظن أن الأيام أعوام.. إنني أنام في الليل لأستيقظ بعد وقتٍ، دقائق أو ساعاتٍ!!.. ظنًّا مني أن الصباح قد جاء، ثم أكتشف أنني ما زلت في الليل وربما في أوله.. أنام مرة أخرى وأستيقظ ظنًّا أن الصباح قد حان وقته.. وهكذا عدة مرات كل ليلة.. وعند الصباح الحقيقي تختلط الأمور في ذهني فأحتار: أي يقظة كانت الحقيقة؟! وهل كانت جميع هذه المرات خادعةً أم بعضها فقط؟!.. ولا يهمك أن تعرف، إن الحقيقة هنا غير ذات أهمية.. وتفقد الليلة الواحدة واحديتها، وكذلك الحال مع النهار.. انظر!.. ففي هذه الجُحر لا يميز النهار عن الليل إلا شريط النور هذا..

ابتسم في مرارةٍ:

- لكني في الأيام الأولى كنتُ أهب مذعورًا في الصباح الباكر، ظنًّا أنني سأتأخرُ عن ميعاد العمل!!.. وتمر ثوانٍ كي أتذكر أنني هنا.. لكنْ حدثني عن وضعك وعن الخارج..

فلما حكيتُ له أطرق بائسًا، وسألني إن كان لي أحبابٌ في الخارج يقلقون بشأني فذكرتُ له أمر حبيبتي ذات الهمسة الآسرة.. فهمس:

- أنا أيضًا كانت لي حبيبةٌ ذات همسة آسرة.

ثم دفن رأسه بين ذراعيْه وساقيْه وصار يرتجفُ كصخرةٍ سوداء تتزلزل الأرض من تحتها..

*أقوالٌ أخرى لسجين الجُحر:

وبينما هو يرتجفُ أكملت أنا قراءة النقش المحفور: "انظر.. في البدء كذب الدياجم.. ثم الملاك والتجار.. ثم الساسة والمثقفون.. انظر: ففسدت الرعية وعمَّ الفساد بأرجاء البلاد".

وعجبتُ لأنه أضاف المثقفين إلى هذه القائمة، وتذكرت للتو حادثة الأديب النصف المعروف معي وحديثه عن الساعات وعن رعب المثقفين من الهؤلاء.. ثم عُدت إلى النقش المحفور وفكرتُ سائلًا نفسي: لماذا يكذبُ الإنسان؟! ثم أجبتُ: يكذبُ الإنسانُ لضعفٍ ما بداخله ولضغطٍ ما من خارجه.. تبدأ المأساةُ بفساد الدياجم فيضغطون، وبعدها يفسد الضعفاء، وهناك طبعًا من يُقاومون وهم مَن يجعلون للحياة طعمًا مقبولًا، فهم

مِلح الأرض.. لكن هناك دائمًا من يتملقون السلطة ويرضخون للهؤلاء عارضين أنفسهم وحول أعناقهم لافتاتٍ كُتب عليها: "للإيجار".. فالحاكم أقوى ومعه الأمر والنهي والمنح والمنع.

***أصلُ البلاء:**

تماسك السجينُ ورفع رأسه.. فسألته:

- هل أنت حافر هذا النقش؟

أومأ.. سألته:

- في رأيك إذن أن الكذب هو أصل البلاء؟
- ليس وحده، لكنه بكل أنواعه وتدرجاته أصل البلاء.. انظر لما يُكتب في الجرائد والمجلات وقد صارت نسخًا متماثلة، استمع لما يُذاع بالراديو والتلفزيون، الفجاجة والرياء واستغفال الناس.. كل الحياة صارت كذبًا ونفاقًا.. انظر عندما يتخذ الديجم قرارًا ستجد الأقلام تتبارى في تأييده، فإذا تراجع عن هذا القرار فإن نفس هذه الأقلام لا تخجل من تبرير هذا التراجع.. إن الصحفيين في ديار أيبوط ليسوا إلا مبررين.. انظر عندما ينوي الديجم إصدار بيان، تظل الجرائد تبشر بهذا البيان: "الديجم يُذيع بيانًا

على الناس بعد خمسة أيام -العالم كله ينتظر بيان الديجم بعد أربعة أيام -العالم يترقب بيان الديجم بعد يومين.. غدًا البيان التاريخي- اليوم يُذيع الديجم بيانه على جميع الموجات القصيرة والمتوسطة.. نص البيان الخطير- أصداء واسعة للبيان التاريخي استمرار الأصداء الواسعة لليوم الثاني".

***التقط أنفاسه ثم سألني:**

- قل لي ماذا تُسمي هذا؟.. لقد تعمدتُ الاستماع إلى إذاعات الدول الأجنبية عقب إحدى هذه البيانات الخطيرة مباشرةً فلم أجد إحداها تشير إلى هذا البيان!!.. انظر إذن: ألسنا كالمراهق المحروم الذي يستمني على روحه فيضاجع أحلى البنات في خياله وبالوهم!!

***أظنه رمسيس الثاني:**

عُدت إلى تأمل الكلمات المنقوشة في خط رديء وفي سطرٍ مائلٍ إلى الانحدار.. وقلتُ:

- قرأت أن المصريين القدماء كانوا يحفرون أقوالهم وأخبارهم على الصخر والجدران، مثلك هكذا..

قال:

- كانوا يهوون هذا بالفعل.. إنني مغرمٌ بقراءة تاريخ هذه البلاد المسماة مصر.. وبمناسبة ذكر قدمائها فإنني قرأتُ عن فرعونٍ حكمها منذ آلاف السنين، وأظنه رمسيس الثاني، هذا إذا لم تكن ذاكرتي قد تشوشت من هذا الجُحر.. ادعى هذا الملك بأنه قد هزم الحيثيين في معركة قادش، وسجل هذا الادعاء في مناظر ونصوص فوق كثيرٍ من معابد مصر بينما نعرف أن أعداءه قد أخذوه على غرة، لولا نجدة قائد جيشه له.. لقد غطى على حقيقة وقوعه في الفخ باحتفالٍ هائلٍ بشجاعته زاعمًا أنه وحيدٌ وليس معه أحد حمى جيشه، قال وحيدًا وليس معه أحدٌ!!.. وبلغ من جرأته أنه أمر الحفارين (وهم الصحفيون والإعلاميون في زمانه) بنقش أنباء بطولته الفردية حتى على معابد أجداده وصخورهم!!.. فكان بذلك من كبار مزوري التاريخ.. ثم مضى يشيد لجسده القصير تماثيل صخريةً شاهقةً تُطاول طوله الحقيقي عدة مرات ليعوض قِصر بدنه ونقيصة نفسه.. انظر: لقد حكى لي بعض السياح الذين زاروا مصر أخيرًا أنهم رأوا أحد هذه التماثيل رؤية العين وقد أعيد تشييده في ميدان المحطة بالقاهرة.. وعلى كل حال فإن هذا الحاكم لم يكن الأول في التاريخ كما

أنـه لم يكـن الأخـير الـذي زيـف الحقائـق.. إنـه الكـذب.. أو عـلى الأقـل: المبالغـة!

***لكل واحدٍ سعرُه:**

قلتُ:

- أشعر أن الذي أتى بك إلى هنا هو إنسانٌ كاذبٌ.
- كاذب جـاء مـن مضاجعـة رجـلٍ كاذبٍ لامـرأةٍ كاذبـةٍ في ليلـةٍ زائفـةٍ، فجـاء بكـف قصـير واهـن الضغطـة عنـد التحيـة، وبطاقـة عـلى إفـراز كتابـات لا أول لهـا ولا آخـر، لا تعنـي شـيئًا.. سـمعته مـرةً يتشـاحن مـع أحـد المثقفـين فيهـدده قائـلًا: "تعـال معـي إلى أقـرب مخفـرٍ كي أعرفـك مـن أكـون".. تصـور!! لم يقـل تعـال معـي إلى أقـرب بيـت ثقـافي!!.. أليـس هـذا دليـلًا عـلى تعاملـه مـع الهـؤلاء؟! إننـي كلـما تذكـرتُ عبارتـه هـذه تأكـد لي أنـه قـد وشى بي كذبًـا، لأظـل حبيـس هـذا الجُحـر بعيـدًا عـن حبيبتـي..

ثـم مـضى بعـد ذلـك يُحدثنـي عـن حبيبتـه هـذه.. فـشرد ذهنـي إلى فتـاتي الخمريـة ذات الضفـيرة الواحـدة، واسـتعدت ضغطـة كفيهـا فـوق ظهـري تشـدني إلى حضنهـا الراغـب وهمسـة شـفتيْها ووشوشـاتها المنتشـية..

وبعد ذلك شرح لي ما وصل إليه حالُ المثقفين المستقرين، تم شراء معظمهم، لكل واحدٍ سعره حسب قيمته وحسب مقدار أكاذيبه التي تؤثر في الناس، فإن استنفدوا الغرض منه تم ركنه في داره، فلا يجد مَن يتذكره لأنه يكون قد فقد احترام الجميع وحبهم..

ثم قال لي:

- ومن لا يخنع لسلطة الدياجم فمصيره معروفٌ..

صمت.. ثم قال في غلٍّ:

- انظر.. أنا لم أداهن..

***المسألة النسبية:**

فرُحت أتأمل الجُحر الذي آل إليه.. قال:

- انظر: هل تعرفُ أن هذا البطش يزيد من تخلفنا الحضاري وبالتالي يزيد من تبعيتنا لمن هم أكثر تقدمًا؟! انظر: فالجهلةُ في ديارنا يُسيطرون على كل الأمور ولا يجرؤ أحدٌ على قول ذلك!!.. وهم يحقدون على المثقفين لعلمهم، وبسبب هذا العلم فهم يخشونهم، لذلك يضطهدونهم ويُنكلون بهم إلى أن يُهاجروا أو يصمتوا أو يتدروشوا.. وفي جميع هذه الحالات يسودُ الجهل ويُصبح سلوكًا يوميًّا، وتتفشى

الغوغائيـة، ويـسري الدجـل والكـذب إلى جميـع الأمـور حتـى يتسـلل كالسـم البطـيء، متسربًـا إلى نفـس العلـماء فيتخلخـل علمهـم.. والمسـألة نسـبيةٌ، انظـر: إننـا نتقـدم في بـطءٍ شـديدٍ، بينـما الـدول المتقدمـة تركـضُ قفـزًا إلى الأمـام، وبذلـك فـإن المسـافة بيننـا وبينهـم تـزداد يومًـا بعـد يـومٍ.. فـما بالـك إن كنـا نحـن لا نتقـدم أصـلًا؟!

تنهد:

- هـل تعـرف مـاذا كانـت غلطتـي؟.. لقـد قاومتهـم بمثاليـة المثقـف الـذي يـرى للحقيقـة أكـثر مـن وجـهٍ، فيهـا الأسـود والأبيـض ومـا بينهـما، بينـما هـم حاربـوني مـن منطقـيْ: مَـن ليـس معنـا فهـو ضدنـا، والغايـة تـبرر كل الوسـائل.. انظـر: لذلـك لم يتورعـوا عـن اسـتخدام جميـع الوسـاخات معـي!!

ظل يضرب الأرض بقبضته غيظًا.. ثم قال:

- اعـذرني إن كنـتَ تجـدني لا أكـف عـن الـكلام، الوحـدة مميتـةٌ ونـادرًا مـا أجـد إنسـانًا يسـمعني، فاعـذرني.. وحدثنـي عـن جريرتـك أنـت!

قلتُ:

- أكاد أفهم الآن.. إنني لم أعارضهم عمليًّا، لكنني في نفس الوقت لم أؤيدهم، فصرتُ عدوًّا لهم حقت عليَّ لعنة الاعتقال والطواف بعموم مخافر أيبوط..

*أقوالٌ أخيرةٌ له:

عقب ذلك دام الصمتُ الثقيل حينًا، زادته ثقلًا تلك التنهدات المقهورة التي كانت صخور الجُحر تزيد من كتمانها.. وظل الحال على هذا المنوال إلى أن سمعت صرير الباب، حيث جاءوا ليأخذوني إلى العرض الثاني على باقي مجموعة الكلاب..

وقفتُ محتارًا: كم من الوقت مكثته في هذا المكان بالضبط؟ ثم لاحظت أن السجين لا يُبعد عينيْه عني، قال بنظرة كسير:

- عندما تُحارب الأوساخ فعليك أن تستخدم أساليبهم، وإلا فإنهم ينتصرون عليك، ثم يشوهون حقيقة أفعالك لأن المنتصر هو الذي يصل صوته إلى الناس، أما المهزوم...

وهذه المرة كان هو الذي أخذ يتأمل ظلام الجحر.. ثم أضاف في أسى مريرٍ:

- إن جاء اكتشافُ العبرة متأخرًا فهي لا فائدة منها!!

وكان قوله حقًّا.. كذلك قال:

- وإن ضربك ملاكمك تحت الحزام فاضربه في أي مكان تطوله وبأي سلاحٍ..

استعجلني الشرطي للخروج فعرضتُ على السجين البائس أن أنقل منه أية رسائل إلى أعزائه في الخارج، فقال إنه يتمنى أن يرسل بعض كلمات الشوق إلى حبيبته، غير أنه اكتأب:

- لكني لستُ واثقًا من أنك..

ولم يُكمل

*كيف تعرفُ الكلاب؟!

تعرفتْ عليَّ الكلابُ الجديدةُ، جميعُها.. فهيأتُ نفسي للعودة إلى جُحر صديقي الذي نسيتُ أن أسأله عن اسمه.. وتوقعت أن يصرفَ الضابط باقي رجال العرض، لكنه فاجأني بإدخالهم الزنزانة الكبيرة!!.. ثم مهر ورقة براءة بشعار مخفره وأعطاها للمندوب المرافق لي الذي حياه وسبقني إلى الخارج، فتبعته مذهولًا لا أفهم شيئًا!

وعلى عتبة المخفر أضاف إلى الشهادات السابقة هذه الشهادة الجديدة التي ليست إلا رقم أربعين، هذه المرة براءة بإجماع جميع الكلاب.. لكني كنتُ مندهشًا، سألته:

- كيف تركني الضابط رغم تعرُّف الكلاب عليَّ؟!
- لهذا السبب أفرج عنك، فهذه الكلابُ لا تتعرفُ على المواطن المذنب وإنما على المواطن البريء:
- هذا ما لم أسمع عنه من قبل!!
- ألم أقل لك إن هذا الضابط وكلابه شيء مختلفٌ تمامًا.

ثم شرح الأمر.. ففي البداية درَّب الضابط كلابه على التعرف على المذنبين، فلما وجد أن عددهم يتزايد باستمرارٍ خاف على أنياب كلابه المدربة، فقرر أن يعكس تدريبها بأن تتعرفَ على الأبرياء، ثم خصص كل كلبٍ لنوعٍ معينٍ من أنواع البراءة، فواحدٌ مهمته اكتشافُ البريء من السرقة، والآخر للبريء من القتل والثالث من التفكير وهكذا..

قلتُ:

- كيف يعرفُ الكلبُ البراءة دون أية قرينة؟! فالمعتادُ أنه في جرائم القتل مثلًا يشم الكلب رائحة السلاح أو أي أثر من آثار المجرم يكون قد تركه، ثم يظل يتقصى هذه الرائحة حتى يصلَ إلى صاحبها.. ولكن إن كان الإنسان بريئًا فهو بلا أثر أو رائحة في أي مكانٍ للجريمة لأنه ليست هناك جريمة، فكيف يشم الكلب

رائحة البراءة؟! والأصعب من هذا: كيف يشم رائحة البراءة من التفكير؟!

رد المندوبُ في صرامةٍ:

- ضابط المخفر يعرفُ كيف يُتقن عمله..

لكنه بعد حين همس:

- بيني وبينك فإن رأيي مثل رأيك.. إنني أعتقد بأن الكلاب ارتبكت ولم تعد تفهم بالضبط أوامر صاحبها، فهي في كل مرةٍ تجد الطابور الكبير الذي وقفتَ أنت فيه، وفي كل مرة تجده مكونًا من نفس الرجال التسعة والثلاثين الذين وقفوا معك عدا واحدًا غريبًا فقط؛ لذلك فإني أظن أنها صارت تظن أن المطلوب منها هو إخراج الغريب!!.. وطبعًا لا علاقة بين هذا وبين البراءة أو عدمها.

عند ذلك عبرتنا سيارةٌ طويلةٌ عظيمة الفخامة أثارت ترابًا كثيفًا في عيوننا.

*المندوب يمشي مختالًا:

.. وظللنا نطوف ونطوف.. حتى وصلنا إلى مدنٍ صغيرةٍ لم أسمع عن أسمائها، وأحياء ممعنةٍ في الفقر لم أكن أتصور وجودَها في أيبوط السعيدة، مما جعلني أتعجب

مـن سـكانها: كيـف لا يخرجـون شـاهرين سـيوفهم وهـم باتـوا لا يجـدون قـوت أولادهـم؟!

وانتفخـت الحقيبـة بـبراءات المخافـر -عـدة مئـات عـلى مـا أظـن -وتضاعفـت بذلـك مكافـأة المنـدوب فسـار بجـواري مزهـوًّا منتفخًـا كأحـد كبـار الأثريـاء.. وفي نفـس الوقـت رحـتُ أُمنـي نفـسي بقـرب اسـترداد حريتـي، وصرتُ أسـتعجل هـذه اللحظـة.

*الشارع الجانبي:

وفيـه صادفنـا عـددًا مـن المتسـولين، وعـددًا آخـر مـن المتسـكعين مهلهـلي الثيـاب.. ثـم عبرنـا عـلى امـرأةٍ بثـوب صـارخ اللـون، تفحصتنـا مليًّـا ثـم صرفـت أنظارهـا عنـا وبعـد أن ابتعـدتْ قليـلًا ظلـت تسـب المنـدوب بأقـذع الألفـاظ.. وكنـتُ قـد بـدأتُ أشـعر بالجـوع.

وأمـام الأكـواخ الصغـيرة الفقـيرة كان الأطفـال الحُفـاة وكلـبٌ أجـرب، ورأيـت الذبـاب يـكاد يُخفـي وجـه طفلـةٍ صغـيرةٍ تلعـب في الطـين.. وعـلى الجانـب الآخـر سـارت فتـاةٌ جميلـةٌ ناهـدةٌ فائـرةٌ يُغازلهـا ولـدٌ ممشـوق القامـة، وكانـا جميلـيْن لـولا أنيميـا بشـعة تصبـغ وجهيهـما بصفـرةِ الكركـم!!

قال المندوبُ معتذرًا:

- شارع قذر لكنه أقرب إلى محطة البلدة من الشارع الرئيسي.

ثم أسرع أمامي بحقيبته السوداء المنتفخة بشهادات براءتي.. ولوهلةٍ فكرتُ أنني يُمكنني الهرب في مثل هذا المكان المزدحم، لكني فوجئتُ بالمندوب يحكي لي حكاية متهم سابق حاول الهرب فلم يفلح وكان نصيبه التكبيل بالسلاسل الثقيلة لليدين والقدمين مدى الحياة..

ثم تابع سيره في هدوءٍ وثقةٍ وسبقني دون أن يلتفت وراءه.. والجوع يكاد أن يفتك بي:

الفصلُ الخامسُ
انظر!.. انظر!..

***منه أكل ومنه تسالي:**

في قطار الدرجة السابعة زاد شعوري بالجوع إلى درجةٍ آلمت بطني، منذ عشرين ساعة تقريبًا لم تدخل معدتي لقمةٌ واحدةٌ.. وعندما أخبرتُ المندوب بهذا ونحن سائرون في الشارع الجانبي صبَّرني قائلًا:

- سوف نأكل في القطار لأني لا أضمن نظافة الأكل في هذا الشارع الوضيع، وما دمت أنت عُهدة في حوزتي فأنا مسئولٌ عن حياتك إلى أن تُسجن.. وبعد برهةٍ أكمل في رنةٍ ساخرةٍ:
- أو يُطلق سراحك.

وكان جوعي أقوى من أن ألاحظ الرنة الساخرة.. لذلك فقد ظللت أترقبُ بائع القطار حتى أهلَّ بسندويتشاته.. تناولتُ واحدًا والمندوب واحدًا، واشترى العجوز المجاور واحدًا.. وكان مع البائع كتابٌ عريضٌ، نزع منه ثلاث ورقات ليلف بها السندويتشات الثلاثة التي باعها لنا.

التهمتُ سندويتشي بسرعة الجائع، ولم أعرف بالضبط إن كان ما به جبنٌ أم شيء آخر.. ولما فرغتُ قبل المندوب وقبل العجوز المجاور ألقيتُ بورقة اللف، ثم لاحظت أن بها كتابةً فالتقطتها ثانية، وأخذتُ أسلي نفسي بقراءة ما فيها.. ويبدو أن الكتاب الذي انتزعتْ منه كان كتابًا في التاريخ، وبالتحديد في تاريخ تلك الدولة المُطلة على البحرين الأبيض والأحمر والمرتوية من نهر النيل والمسماة مصر..

وكانت الورقة تحتوي على صفحتيْن، ورحتُ أقرأ...

*الصفحة الأولى من الورقة:

... ... رأسًا على عقب، وكان ذلك حوالي عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد.. وسنقتبس مقتطفاتٍ من عدة نصوصٍ تتفق في دهشتها وحزنها على ما آل إليه أمر مصر القديمة..

فالمتنبئ "إيبو -ور" يقول: "انظر! لماذا تدور الدنيا كما تدور عجلة الفخار، فاللص يملك والشريف يُتهم والأمين يُطارد؟! لماذا أصبحت الطرق غير محروسةٍ، إذا خرج ثلاثة رجالٍ عاد منهم اثنان؟! انظر: لماذا صارت هذه الأعوام أعوام خوف؟!

ليت ذلك يكون نهاية الناس فلا حمل ولا ولادة، لتخلو الأرض من ضجيج المخاصمات!!..

انظر: لقد عُرف سر البلاد!! انتهى الأمر وعُرف سر البلاد"!!.

وبعد ذلك يتساءل "إيبو- ور" عن فائدة خزينة الدولة وهي دائمًا خاويةٌ، فموظفو الخزانة يسرقون الضرائب، وقوانين الديوان قد ألقيت إلى الطريق!

واستشرت الفوضى في عموم البلاد حتى صار الموتى لا يجدون من يدفهم، وصاروا يُلقى بهم إلى النهر، فأصبح مجرى الماء قبرًا!!

وهذا يتضمن الانتحار أيضًا، دفع اليأس والجوع والظلم بالكثيرين إلى الانتحار بإلقاء أنفسهم إلى النيل الزاخر بالتماسيح :"انظر، إن التماسيح تبقى تحت الماء لكثرة ما حصلت عليه!!.. ولم تعد في حاجةٍ إلى الخروج بعيدًا عن النهر لاصطياد فرائسها، فالناس يذهبون إليها من تلقاء أنفسهم"..

... ...

إلى هنا انتهت الصفحة الأولى من ورقة السندويتش، فقلبتها إلى ظهرها، شاكرًا الظروف أن مثل هذه الأمور لا تقع في إيبوط المجيدة، فهي سعيدة طبقًا للبيانات الرسمية..

***نص المكتوب في ظهر الورقة:**

.. كان ما أصاب مصر مرضًا كامنًا في جسدها ولم يكن عدوى أو إصابة من أحد آخر، إذ لم يكن الجسم المصري على قدرٍ كافٍ من الصحة.. فانهارت الدولة من الإجهاد الداخلي، وتُركت الحدود مفتوحة لا يُدافع عنها أحد.. فعُرف سر البلاد وتدفق الآسيويون، وناح المتنبئ "نفر.. روهر" معلنًا: "ظهر الأعداء في الشرق، وجاء الآسيويون إلى مصر. ستنسرب وحوش الصحراء، من مياه النيل"!!

ولكن اليأس والزهد لم يكونا الرديْن الوحيديْن على مشكلة الألم.. إن "إيبو-ور" يُجابه حاكمه قائلًا" :تتجمع فيك السلطة ولكنك لا تنشر في البلاد غير ضوضاء الفوضى.. انظر: صار كل شخصٍ يُغطي وجهه خوفًا من المستقبل، وهذا يعني في الحقيقة أنك كنت كاذبًا".

كذلك فلاح "أهناسيا" الفصيح، نجده لا يهيب من مجابهة حاكمه: "على مَن يُوزع الحق أن يكون منصفًا ومضبوطًا مثل كفيْ الميزان.. لقد عينوك لتكون سدًّا للمتألم تُحافظ عليه من الغرق، ولكن انظر: إنك أصبحتَ البحر الذي يغرق فيه الناس"!!.. ورغم شدة قتامة الصورة، فإن المؤرخين يعتبرون هذا العصر عصرًا مزهرًا في تاريخ التقدم البشري بسبب أن مصر كانت قد وصلت إلى المناداة بأن لكل فرد حقه الشخصي في معاملةٍ عادلةٍ..

وسوف نرى في الباب العاشر من هذا الكتاب أن الانهيار النهائي للروح المصرية جاء مع إنكار الحكام على الناس حق الكلام..

... ...

انتهت سطور هذه الصفحة، ويبدو أنها كانت نهاية فصل من الكتاب..

*ذات الهمسة الآسرة:

كان القطار يسيرُ بطيئًا، وعددٌ من الركاب قد ذهبوا في إغفاء القيلولة.. ويبدو أن العجوز المجاور كان يُعاني من الملل مثلي، إذ كان منهمكًا في أكل سندويتشه، بينما استغرق في قراءة ورقته وقد رفعها أمام عينيْه بيده الأخرى..

ظللتُ أنتظر فراغه منها كي أتسلى بقراءتها -بينما المندوب يأكل سندويتشه في تباطؤ الشبعان، دليلًا على تناوله الطعام في المخفر الأخير من خلف ظهري ودون أن يتذكرني -فأخذتُ أسلي نفسي بالتطلع إلى الخارج.. وبعد وقتٍ سمعت صوت -قطار يقترب من الاتجاه المضاد، فنظرتُ بدافع الفضول، ولما حاذانا رحتُ أتأمل عرباته، وعندها وفي عربة الدرجة السابعة خُيل لي أني شاهدتُ حبيبتي بجوار إحدى النوافذ!!.. فقفزت مشرئبًّا بجسدي خارج العربة مناديًا عليها بأعلى صوتي، غير أن قطارها ابتعد ثم اختفى.. فجلستُ منفعلًا ليرمقني المندوب بنظرةٍ حادةٍ صارمةٍ دون أن يكف عن المضغ البطيء، وليتأملني العجوز المجاور طويلًا في حنانٍ ورثاء..

ساءلتُ نفسي: أتكون هي حبيبتي حقًّا؟! وإن كانت هي فما الذي أركبها عربة الدرجة السابعة؟! ثم تذكرت أنه كانت إلى جوارها امرأةٌ أخرى!!.. فهل أمسكوها ليطوفوا بها مثلي؟! ولكن لأي ذنبٍ؟!

أغمضتُ عيني هامسًا لنفسي بأن ما رأيته ليس إلا وهم خيالٍ خلقه ذهني المكدود، وبأن المرأة التي شاهدتُها ليست حبيبتي..

غير أن دوامة الوساوس استولت عليَّ: كيف حالها الآن بعد أن طال بنا الفراق؟! وهل تحتملُ الحياة في غيبتي دون رجلٍ ودون حب وجنس؟!..

ولم ينقذني من هذه الدوامة المزعجة إلا صوتُ العجوز المجاور يطلبُ مني مبادلته ورقةً بورقةٍ، فرحبت بذلك.. ومن النظرة الأولى أدركتُ أن ورقته ليست التالية في التسلسل الرقمي لورقتي، إذ يبدو أنها كانت تتحدثُ عن فترةٍ أخرى (حوالي عام ١١٧٠ قبل الميلاد على ما أذكر) وفيها حدث انهيارٌ آخر للدولة المصرية بعد أن كانت مركزًا لحضارة العالم المأهول..

وبدأتُ أقرأ ورقة العجوز..

***الوجه الأول منها:**

(وهو مُحلى بصورةٍ لأحد النقوش الفرعونية تُمثل بعض العمال أثناء عملهم.. وتحت الرسم كُتب ما يلي..)

... ... الشهر الثاني، من الفصل الثاني، اليوم العاشر: في هذا اليوم اخترق طريق العمال في الجبانة الأسوار الخمسة صائحين: "نحن جياع، نحن جياع"- وكان هذا أول إضراب للعمال في العالم- وفي اليوم الثالث تجرأوا وهجموا على معبد رمسيس الثاني، وعند ذاك هرع إليهم عددٌ كبيرٌ

مـن الحـراس، ووعدهـم كبـيرُ الشرطـة بأنـه سـيرفع الأمـر إلى عمـدة طيبـة الـذي كان قـد فضـل الاختفـاء عـن الأنظـار.. كان المضربـون مصممـين عـلى موقفهـم ولكنهـم لم يخرجـوا عـلى النظـام، واسـتمع الموظفـون إلى احتجاجهـم.. "لقـد جئنـا إلى هـذا المـكان بسـبب الجـوع، فنحـن بـدون ثيـابٍ وبـدون زيـتٍ وبـدون سـمكٍ وبـدون خـضراواتٍ".. وصرفـوا لهـم مخصصـات الشـهر السـابق..

ولكـن التجربـة علمتهـم ألا تثنيهـم الترضيـة الجزئيـة عـن عزمهـم.. وطالبـوا بـأن تُدفـع لهـم مخصصاتهـم عـن الشـهر الحـالي أيضًـا..

ولعـل قِلـة الدخـل وعـدم أمانـة الموظفـين والمنازعـات السياسـية والإهـمال في العمـل وانتشـار الرشـوة كانـت مـن بـين الأدواء الكامنـة في تاريـخ مـصر.. فـكان الفسـاد الأعظـم وأعـوام الضيـاع التـي فيهـا مـات النـاس جوعًـا.. لتمـر السـنين ويحكـم مـصر (ششـنق) الليبـي ثـم (بيعنخـي) الإثيـوبي ثـم الآشـوريون والبابليـون.. ثـم تـلا ذلـك غـزو الفـرس لمـصر وأخـيرًا المقدونيـون.. إلى آخـره وهـذا مـما أدى إلى إحسـاس المـصري بالذنـب وإلى شـعوره بالخطيئـة..

... ...

*الوجهُ الآخرُ من ورقة العجوز:

... ... وسنقتبسُ جزءًا من أناشيد الندم والتوبة التي انتشرتْ في ذلك العصر.. يقول المنشد: "أيها الإله لا تُعاقبني على ذنوبي الكثيرة، فإنني امرؤ لا عقل له أقضي طوال يومي في ملء فمي كما تفعل البقرة في طلب الحشائش"..

وهنا نرى حرصه على تحقير ذاته وتشبيه نفسه بالبقرة التي لا تتكلم، فقد كانت أهم صفة يمتدحها الناسُ في ذلك العصر هي الصمت!!.. ويعنون بالصمت أشياء عديدة ومهينة منها: الصبر القهري أي الاستسلام والتواضع العاجز أي الخنوع..

وعلى العكس من ذلك نلاحظ أنه في عصور الازدهار وعظمة الإمبراطورية لم يكن الصمت ميزةً من الميزات التي يتباهى بها المصري المرح، بل قدرته على الفصاحة لنيل مبتغاه: "كنتُ فنانًا في الحديث، شجاعًا بلساني، عاملًا بذراعي".. وكان يُجاهر متفاخرًا بأنه ابن الحكماء، ابن الملوك القدماء..

فلما تصلبت شرايين مصر زاد التجاؤها إلى الشكل عوضًا عن المضمون، وأصبح الناس منصرفين إلى المظاهر الطقسية، لأنهم رأوا في ذلك استمرارًا لنشاط أيديهم وأفواههم التي حرموها من نشاطها وحريتها الخاصة،

وظهرت الشعوذة ومظاهر السحر والرقى، والإيمان بالفأل والاتجاه نحو النبوءات.. لقد شغل المصريون أنفسهم بهذه الأشياء متناسين أنه كان محالًا بينهم وبين التعبير عن آرائهم الفردية..

... .

وفي أسفل هذا الكلام رُسمت زهرة اللوتس، ربما بسبب انتهاء الكتاب أو على الأقل انتهاء هذا الفصل.

*العجوزُ الذي يهوى التجوال الدائم:

.. وكان القطارُ يُبطئ إيذانًا بدخوله إلى المحطة القادمة.. ولما نظرتُ إلى المندوب وجدته قد انتهى من الأكل وورقة السندويتش ملقاة أسفله على الأرض، التقطتها ونظَّفتها من آثار حذائه بينما هو ينهضُ متجهًا إلى باب النزول، لنكتشفَ بعد ثوانٍ أن القطار توقف في غير محطةٍ ولسببٍ غير معروفٍ، فعدنا إلى أماكننا، احتفظتُ بالورقة في جيبي..

كان العجوزُ يتأملُ المنظر الخارجي في هدوءٍ ودعةٍ وقد خلص من قراءة ورقتي وكان وجهه متسمًا بسيماء الحكماء.. وسرعان ما تحادثنا معًا، فعرفت عنه هواية

ركـوب القطـارات، يركـبُ الخـط مـن أولـه إلى آخـره ثـم يعـودُ ليسـتقل قطـارًا آخـر، وهكـذا وبـلا ملـلٍ..

قال:

- منذ أحالوني إلى الاستيداع وأنا جوَّالٌ طوَّافٌ.

قلتُ رامقًا المندوب في حذرٍ:

- جوَّال بإرادتك، طوافٌ برغبتك.. وإني لأحسدك.

أومأ في أسي:

- أعرف أنك طواف رغم أنفك، جوال ضد إرادتك..
- كيف عرفت؟
- كثـيرًا مـا ركـب إلى جـواري أشـخاصٌ مثلـك يصحبهـم أشـخاصٌ مثلـه.

همستُ في أذنه:

- أرأيتهم في الذهاب أم في العودة؟
- معظمهم في الذهاب.
- لكنك رأيت بعضهم عائدين؟!
- الحقيقة: لم تُصادفني هذه الحالة.

ولما رأى ابتئاسي أضاف برنةٍ واهنةٍ:

- أظن أنني تخايلتُ في بعض أشباهك وهم عائدون.

***وكان قبل ذلك قاضيًا يحكمُ بالعدل:**

وكانت محكمته هي محكمة إيبوط الكبرى بالعاصمة.. لكنه أُحيل إلى الاستيداع قبل السن القانونية بعدة سنواتٍ وليس بناء على طلب منه:

- أحالوني إلى الاستيداع لأني حكمتُ في ثلاث قضايا في يومٍ واحدٍ.
- سمعت عن قضاةٍ يحكمون في عشرات القضايا في ساعةٍ واحدةٍ.
- ليس بسبب العدد، وإنما بسبب النوعية.

ثم أخذ يُسهب في الحديث عن هذه القضايا التي فصل فيها في حكمٍ واحدٍ.. وكان لصوته رنينُ القناعة بما فعل.

***القضية الأولى باختصارٍ شديدٍ:**

وهي قضية سرقة: اتُّهم فيها واحدٌ من صغار المحاسبين بإحدى المؤسسات الضخمة، وقد اعترف اعترافًا متناقضًا: قال إنه سارقٌ وفي نفس الوقت ليس بسارقٍ!!.. فلما سأله القاضي تفسيرًا قصَّ عليه قصته.. ففي شهره الأول من العمل اكتشف أن رئيسه المباشر يختلسُ من أموال المؤسسة، فذهب وأبلغ عنه رئيس القسم الذي

وبَّخه وزجره لسوء ظنه.. وفي شهره الثاني اكتشف أن رئيس القسم أيضًا يسرقُ، فشكاه إلى رئيس الفرع الذي أرسل إليه لفت نظر بألا يتطاول بالشك مرةً أخرى في رؤسائه الشرفاء.. لكن هذا الموظف ظل يكتشفُ شهرًا بعد شهرٍ تورط رئيسٍ أعلى، مع تزايد حجم السرقة بتعاظم شأن كل رئيس، إلى أن تدرج إلى نائب رئيس المؤسسة كلها!!.. ففار دمه وطلب مقابلة رئيس المؤسسة شخصيًّا لثقته في ورعه وفي المسبحة التي تظهر معه في جميع صور الإعلانات التي تنشرها المؤسسة تجديدًا لبيعة الديجم.

واستمع إليه الرئيسُ في أناةٍ، وبعد أن سجَّل أمامه بعض الملاحظات نهض وحيَّاه بتحية المؤمنين شاكرًا فيه همَّته ونزاهته ثم صرفه.. ليُفاجأ صديقي الطيب في اليوم التالي مباشرةً بخصم نصف شهر من راتبه الضئيل، فجُن جنونه وحاول مقابلة الرئيس مرةً ثانيةً ولكنه مُنع بقسوةٍ، فما كان منه إلا أن اختلس من أموال المؤسسة ما يُعادل تمامًا نصف راتبه المخصوم ظلمًا.. وبذلك يكون قد سرق ولم يسرق..

وتلك هي خلاصة القضية الأولى كما رواها جاري العجوز في القطار المتوقف..

*مجملُ وقائع القضية التالية:

(وكان القطارُ قد بدأ يسير).. وهي قضية بغاء: والمتهمة فيها امرأةٌ نحيفةٌ ضبطها أحد الهؤلاء وهي تتفق مع أحد الرجال على قضاء ليلةٍ في شقته مقابل مبلغٍ صغيرٍ.. وعندما وقفتْ أمام القاضي رأى في وجهها ما ينم عن سوء التغذية، وعلى الفور تذكر بالمفارقة حال العمارة التي يقطن فيها وبها ٢٦ شقة كبيرة، منها خمس عشرة على الأقل تمتلكها عائلاتٌ لأربابها مناصب مهمة ولرباتها نفوذٌ واسعٌ، وهذا هو الظاهرُ بينما في الحقيقة تُدار هذه الشقق لمتعة بعض الشخصيات المهمة والسياح وأصحاب البترول، وكله بالمال الكثير!!.. وهذه لا يجرؤ أحد الهؤلاء على الاقتراب منها إلا كزبون.. بينما هم يقتادون المرأة النحيفة سيئة التغذية إلي القضاء ليحكم بالعدل..

قال القاضي

- وقد حكمتُ بالعدل.. كما أراه..

*أما القضيةُ الثالثةُ:

فهي قضيةُ إزهاق روح.. قام بها أحد الفلاحين بقتل موظف (جمعية السماد والكسب والبذور) في قريته بطلق

نـار مـن بندقيـةٍ قديمـةٍ، فقـضى عليـه للتـو، وعندمـا قُبـض عليـه اعـترف ولم يُنكـر..

والـذي حـدث أن هـذا الموظـف أعطـاه بـذورًا فاسـدةً أنبتـت زرعًـا هزيـلًا، ثـم باعـه سـمادًا مغشوشًـا أضعـف الزرع الهزيـل.. وعندئـذ شـعر الفـلاح بالإهانـة إذ إن زرعـةً كاملـةً مـن أرضـه قـد بـارت وقُتلـت دون ذنـبٍ منـه، فجلـس فـوق الأرض يُفكـر، بعـد وقـتٍ رأى أن هـذا الموظـف لا يسـتحق الحيـاة فقتلـه.

قال القاضي:

- وكل الذي فعلته أنني اعتمدت حكمه..

*مبرراتُ الحكم في القضايا الثلاث:

ثم حدثني القاضي على الاستيداع فقال:

- المعتـاد أن يصـدر الحكـمُ في كل قضيـةٍ عـلى حـدةٍ، أي واحـدةً تلـو الأخـرى.. لكنـي في هـذه القضايـا الثـلاث لم أحافـظ عـلى هـذا التقليـد، ففـي رأيـي أنهـا قضيـةٌ واحـدةٌ.. ألسـت معـي في أنهـا قضيـةٌ واحـدةٌ؟

رمقني المندوبُ بنظرةٍ حادةٍ فلم أرد.. وقال القاضي:

- أحـضرتُ المتهمـين الثلاثـة وأعلنـتُ حُكمـي فيهـم.. قلـت للمحاسـب الصغـير:

عندما أتمكن من محاكمة رؤسائك المختلسين حتى رئيس المؤسسة نفسه فسوف أحاكمك أنت.. وقلتُ للبغي: وعندما أقدر على إدخال صاحبات الشقق الخمس عشرة وأزواجهن إلى السجن فسوف أدخلك أنت.. وقلتُ للفلاح: أما أنت فقد أثبتَّ دون أدنى شك أن كثيرًا من الناس يصلحون قضاةً عادلين حتى وإن كانوا فلاحين مثلك!!

هزَّ العجوزُ رأسه:

- وحكمتُ عليهم بالبراءة الشاملة.. فقامت قيامة البعض ولم تقعد إلا بعد إحالتي إلى الاستيداع -أنا غير نادم -لأنفق معاشي في الطواف بأنحاء الأرض.. أجالس الناس وأتحدث معهم.

ثم قال:

- وحكمتي في ذلك هي الابتعاد عن فساد القوم بالعاصمة.

*حبيبتي.. حبيبتي:

ولما سكتَ ظللتُ ساهمًا صامتًا إلى أن عبرَنا قطارٌ مضاد وهذه المرة تطلعت بسرعةٍ من النافذة، مدققًا النظر في عربة الدرجة السابعة، وكدتُ أقطع شكي باليقين

عندما رأيتُ حبيبتي من إحدى النوافذ وبجوارها امرأةٌ أخرى.. أسرعتُ بالنداء، فنظرتْ نحوي واشرأبت بنصف جسدها.. ولكنها لم تلوح لي، وكان وجهها شاحبًا باكيًا، وتطايرتْ ضفيرتُها الوحيدةُ مع الهواء.. ولكني لم أر فيها حُسن حبيبتي وروعة بهائها.

وبعد أن اختفى القطارُ تمامًا عُدت إلى مقعدي مغمومًا مقهورًا، وشعرتُ بالعَرق البارد يغمرُني، وبكل الأشياء تغيم من أمامي، ففقدتُ إحساسي بالوقت وبالمكان، إلى أن شعرتُ بالمندوب يلكزني في عنفٍ كي أمضي من خلفه حيث كان قطارنا قد وصل إلى المحطة المقصودة..

الفصلُ السادسُ

نظريةٌ جديدةٌ في نشوء المدن وتطورها

***الوحدة على الخط المنفرد:**

.. ثم عُدنا إلى المحطة بأوراق براءات جديدة.. وسار القطار.. وتضاعف الورقُ حتى خلتُ أننا سنوالي الطواف إلى ما لا نهاية.. وفكرتُ في الهروب مرةً أخرى لكن المندوب عاد يقص عليَّ محاولات السابقين لي والتي باءت جميعُها بالفشل وكانت وبالًا عليهم.

وصلنا إلى الأطراف المترامية من أيبوط.. حيث انقلب الخط الحديدي من خط مزدوج للذهاب والإياب إلى خط منفرد!!.. فلماذا خط مفرد؟!

ثـم أخـذ الألم يُعـاودني عـن المصـير الـذي آلـت إليـه حبيبتـي!! لمـاذا يفعلـون بهـا ذلـك؟!.. وهاجمنـي صـداعٌ ثقيـلٌ عندمـا تذكـرتُ قـول الرجـل المضغـوط بـأن ذوقـه في النسـاء يـكاد يُطابـق ذوقـي إلى حـدٍّ مذهـلٍ!!.. فهـل طلبهـا لنفسـه ورفضتـه هـي فانتقـم منهـا..!

زاد ضغـط الألم عـلى قلبـي ورأسي، فغامـت عينـاي عـن الرؤيـة.. وقلـت ربمـا لم تكـن هـي، ربمـا كانـت شـبيهةً لهـا.. بينـما القطـار فـوق الخـط المفـرد يتأرجـحُ عـلى مهـلٍ -ولم يعـد بـه مـن ركابٍ غـيري وغـير المنـدوب -والبيـوت الكالحـة تتراجـع وتنخفـض لتحـل محلهـا خـضرةٌ باهتـةٌ لـزرعٍ عليـلٍ، ثـم أكـواخ الطـين وعشـش الفقـراء وانحنـاء الجـوع والمـرض.. وبعـد ذلـك جـاءت الصحـراء، جـرداء صفـراء صفـرةً لا نهائيـة، خاليـةً حتـى مـن الـكلأ، حتـى مـن الأشـواك.. رمـالٌ منبسـطةٌ ولا شيء غـير ذلـك مـن الجانبـين.. وضايقتنـي الحـرارةُ وصمـت المنـدوب المسـترخي والمقاعـد الخشـبية الخاليـة، وصـار الملـل لا يُطـاق..

تذكـرتُ الورقـة في جيبـي، والتـي كان ملفوفًـا بهـا سـندويتش المنـدوب، أخرجتهـا وفردتهـا.. وكانـت أيضًـا تتحـدث عـن تاريـخ مـصر الأصيلـة والتـي كثـيرًا مـا حلمـت بأننـي أحـد رعاياهـا المتعبديـن في عراقـة تراثهـا وجـمال إبداعهـا وسـماحة فكرهـا -وهـو الحلـم الـذي لا أجـرؤ عـلى

ذكـره أمـام أي واحـدٍ مـن الهـؤلاء- والتـي كنـتُ أراهـا في منامـي وقـد نفضـتْ جميـع القـوى عـن عقلهـا وروحهـا..

*ما قرأتُه في الورقة الثالثة:

.. وقـد كانـت فـترة الاحتـلال الـتركي العثـماني كارثـة الكـوارث مـن حيـث القمـع والبطـش والنهـب، لدرجـة أن الجـبرتي كتـب في شـهر أغسـطس مـن عـام ١٦٦٥ يقـولُ بالحـرف الواحـد: "اجتمـع الفقـراء رجـالًا ونسـاء وصبيانًـا وطلعـوا القلعـة، ووقفـوا بحـوش الديـوان وصاحـوا مـن الجوع فلـم يُجبهـم أحـدٌ، فنزلـوا إلى الرميلـة ونهبـوا وكالـة القمـح وحاصـل كتخـدا الباشـا وكان ملآنًـا بالشـعير والفـول.. وكانـت هـذه الحادثـة ابتـداء الغـلاء، وحصلـت شـدةٌ عظيمـةٌ بمـصر وأقاليمهـا، واشـتد الكـربُ حتـى خطـفَ الفقـراء الخبـز مـن الأسـواق ومـن رؤوس الخبازيـن، ويذهـب الرجـلان والثلاثـة مـع طبـق الخبـز يحرسـونه مـن الخطـف وبأيديهـم العـصي حتـى يخبـزوه ثـم يعـودون بـه.. مـات الكثـير مـن الجـوع!!.. وأكل النـاس الجيـف!..

.... وانتهـى الأمـرُ بـأن أشـيع في النـاس بـأن القيامـة قائمـةٌ يـوم الجمعـة ١٩ مايـو سـنة ١٧٣٥م.. وفشـا في النـاس قاطبـةً، وودعـوا بعضهـم بعضًـا، ويقـول الإنسـان لرفيقـه بقـي مـن عمرنـا يومـان.. ومـن النـاس مـن عـلاه الحـزنُ وداخلـه

الوهـم.. وخـرج الكثـيرون مـن المخاليـع الرقعـاء إلى الغيطـان والحدائـق ويقولـون لبعضهـم البعـض: دعونـا نعمـل خطًّـا ونـودع الدنيـا قبـل أن تقـوم القيامـة!!..

لقـد تمنـى النـاس قومـة القيامـة لأن حياتهـم صـارت جحيـمًا.. فـإذا نحـن تقدمنـا في تاريـخ هـذا البلـد- مـصر -وإلى أن نصـل لأيامنـا هـذه وجدنـا أن... ... ...

... ...

ولم أتمكـن مـن إكـمال القـراءة.. فلسـببٍ مجهـولٍ- وعنـد هـذا الحـد -مـدَّ المنـدوب يـده فجـأةً وخطـف الورقـة منـي وألقاهـا مـن نافـذة القطـار.

سألته تفسيرًا لذلك فلم يزد عن قوله:

- إن القـراءة ممنوعـةٌ في قطـار الخـط المنفـرد، إلى جانـب أنهـا تُتعـب النظـر!!

وبعـد ذلـك مالـت الشـمس إلى المغيـب لتزيـد أشـعتها الصفـراء مـن صفـرة الصحـراء الجـرداء.. ثـم أخـذت تُعتـم وتُعتـم حتـى اسـودَّت الأرض والسـماء واختفـت كل الأشـياء.. ودخلنـا في ظـلامٍ لا آخـر لـه..

*ليلُ الصحراء وعتابٌ صغيرٌ:

.. انتظرتُ أن يُضاء نور العربة لكن هذا لم يحدث، فكان الظلام داخل القطار أيضًا ومن جميع الجهات.. وسيره بطيئًا ورجرجته كثيرة.. فنمت -ككل مرة -نومًا متقطعًا لا أعرف مدته.. ومن حينٍ لآخر كنتُ أرى عن قربٍ نقطة حمراء لسيجارة المندوب تتوهج ثم تنخفضُ ليخفت لونها..

ثم تلا كل ذلك طلوعُ ما يُشبه الضوء المرتعش المكتوم والحرارة حامية شديدة الوطأة.. وخلع مرافقي سترته وفعلتُ مثله، ولاحظتُ أن جسدي يتصببُ عرقًا دون توقف.

طلبتُ من المندوب أن نتكلم معًا لكسر سخافة الوقت الممل، فأجاب بأن التعليمات لا تمنع الكلام في قطار الخط المفرد.. قلتُ:

- لاحظت أنك تتعمد إطالة مدة جولاتنا هذه، وأخشى أن يكون ذلك لمضاعفة مكافأتك المالية.. ولا تؤاخذني إذا...

قاطعني في برودٍ:

- كم أنت سيئ الظن!!

أخرج منديله ومسح عينيْه ثم تمخط وتهدج صوته:

- لم أكن أعرف أنك حاقدٌ هكذا.. وبفرض أنني أتعمد إطالة الطواف لمضاعفة ربحي، فهل تكره لي أن أعيش شهر مصيفي في رغدٍ وهناء!.. هل تكره فائدة لأخيك الإنسان؟..!

***مخفرُ الرمال:**

وعندما تابعنا رحلتنا سيرًا على الأقدام وسط رمال الصحراء ظل المندوب ممسكًا عن الكلام، ومنذ أن هبطنا عند آخر الشريط المفرد وانقباضٌ شديدٌ يعصرُ قلبي، ربما بسبب خلو المكان القفر!!.. لذلك فقد عجبتُ جدًّا عندما لاحت لي بنايةُ المخفر المقصود، خرسانية عملاقة في خلاء ممتد أجرد!!

- فلماذا يبنون هذا المخفر في هذا المكان القفر الأجرد؟!

في البداية رفض الإجابة، فتسمَّرت في مكاني في عنادٍ، فسار يتكلم وأنا من ورائه:

- تعرف أن كلية الشرطة تُخرج الضباط كل عام.. أصوابٌ أم خطأ؟

- صواب..

(وذكرتني طريقةُ أسئلته بالرجل المضغوط رئيس هؤلاء أيبوط الذي أمر بطوافي المؤلم هذا).. قال المندوب:

- ولقد امتلأت جميع المخافر الموجودة بالخريجين إلى درجة الامتلاء.. ومع ذلك فإن الكلية تُخرج كل عام دفعاتٍ جديدةً فأين يذهبون؟!
- ما دمنا لسنا في حاجةٍ إليهم فلتغلق الكلية.
- وأين يذهب موظفوه وأساتذته وضباطه؟!

*أيبوط تبتكرُ نظريةً جديدةً في نشوء المدن:

وعدتُ أسأله:

- لكنك لم تقل عن السر في إقامة هذا المخفر هنا؟!
- بعد نظر..
- لا أفهم.
- لانتشار العمران..
- لا أفهم أيضًا..
- قديمًا كانت المدن تنشأ حول منابع المياه أو حول مراكز المواصلات.. أصوابٌ أم خطأ؟
- صوابٌ، وهذا معروفٌ في التاريخ كله..

- لقد كان هذا يحدثُ في العصور المتخلفة.. أما في عصرنا الحديث فالمدن تنشأ حول المخافر، في البداية يجيء المخفر فيعم الأمنُ في الخلاء المُحيط به.. وعندئذ تُبنى البيوت ثم تتكوَّن المدن..
- فهذا المخفرُ إذن هو نواةٌ لمدينةٍ جديدةٍ؟
- نعم.. وهذا هو التفسير الرسمي، وهو كما ترى مقنعٌ تمامًا.

ثم همس بالهمسة التالية:

- وهناك سببٌ آخر، وهذا بيني وبينك، وهو أننا ببناء هذا المخفر نُتيح فرصة التعيين لبعض الخريجين براتبٍ كبيرٍ فنرضي بهذا آباءهم وهم من ذوي الحيثية، وهذا بالطبع أفضل ألف مرة من أن نتركهم بلا عملٍ، تسمع طبعًا عن نجاسة الإيد البطالة؟!

*همساتٌ أخرى.. وأخيرة:

- وهناك فوائد إضافيةٌ لهذه المخافر الصحراوية، وهي نضع فيها المسجونين السياسيين، فهم كما تعرف مشاغبون وأصواتهم عاليةٌ، وهنا يضيع ضجيجهم في رحابة الصحراء، بالإضافة إلى سببٍ إنساني نبيلٍ وهو أن هواء الصحراء جاف يُفيد مرضى الصدور، ومعظم

المسجونين السياسيين يشكون من علة الصدر بسبب انكبابهم على القراءة في الغرف المغلقة أو في المكتبات الرطبة وبسبب أنهم يُنفقون أموالهم في اقتناء الكتب وليس شراء الأكل المفيد.. وعلى هذا يُمكنك أن تقول وأنت مستريحُ الضمير بأن هذه المخافر بمثابة المصحات الطبية لأبدانهم ولعقولهم.

(وفي مجال الكتب ذكر لي أيضًا بأن قراءتها ترهقُ العين وبأن وجودها في البيت يجلب الفئران والصراصير).

*آمالٌ فوق الرمال:

أكد لي المندوب أن هذا هو المخفر الأخير.. وكانت الحقيبة معه قد اكتظت عن آخرها بأوراق البراءة، وبقي لي أن أحصل على ورقةٍ واحدةٍ مشابهةٍ من هذا المكان الذي ندنو منه وأنال حريتي وارتفاع هامتي.. وقررتُ في نفسي أن أحاسبَ الرجل المضغوط حسابًا عسيرًا عند عودتي، وقررتُ أيضًا أن أفضح أمره لدى الناس وأن أكشف فظائع كل الجاحظين من أمثاله، هكذا قرَّ قراري وفي مخيلتي صورة سجين الجُحر في المخفر الأربعين وفي أذني صوته البائسُ ينصحني بأن أحارب الأوساخ بطريقتهم، ثم وهو يقول بأن اكتشاف العبرة إن جاء متأخرًا فهو لا فائدة منه..

ورغـم وهـج الرمـل وحـرارة الجـو إلا إننـي حلمـت بشـقتي ووعـدتُ نفـسي بـأن أنـام لـدى عـودتي ثلاثـة أيـام متتاليـة، أمضيهـا بـين الأكل والنـوم ولا شيء.. ثـم حلمـت بحضـن حبيبتـي واسـعة العينـين ذات الهمسـة الآسرة، ورأيتني أدعوهـا إلى اللقـاء بعـد اسـترداد عافيتـي لأسـتمتع بقبلاتهـا وبأخذهـا في حضنـي.. ونويـتُ أن أصطحبهـا في رحلـةٍ سـياحيةٍ لبعـض آثـار مـصر، لتشـاهد معـي تلـك الأمـيرة السـاحرة المنقوشـة فـوق جـدار المعبـد الفرعـوني كي تـرى بنفسـها كـم هـي قريبـة الشـبه منهـا..

لكـن أيـن هـي الآن؟! ومـاذا فعلـوا أو يفعلـون بهـا؟! ولمـاذا أمسـكوها ولمـاذا أمسـكوا بي أصـلًا؟!

أمسكني دوار القهر فمادت الرمال بي..

*دوار المخفر الأخير:

ثـم تماسـكت مـن دواري بصعوبـةٍ عـلى زغللـة البنايـة العاليـة، كبنايـات الغيـلان في قصـص الخرافـات، لهـا بـابٌ رئيـسي مغلـقٌ مـترب العتبـة.. ولا آثـار لأقـدام عـن قربهـا!!.. أتكـون البنايـة مهجـورةً غـير مسـتعملةٍ؟!

قال المندوب:

- سندخل من الباب الخلفي وهو ضيق.

ودرنا.. وكانت أقدامنا تغوصُ في الرمال الناعمة التي تسللتْ بين أصابع قدمي من ثقوب نعلي الحذاء المتآكلة.. بينما راح المندوب يمتدح ذكاء ضابط هذا المخفر، فهو على عكس جميع السابقين قوي الذاكرة بشكلٍ حاد وقاطع.. قال:

- إنه يتذكر عادة ما يفشل فيه أقرانه، لدرجة أنه تذكر تقريبًا جميع الذين أحضرتهم من قبلك..

دق قلبي.. قال:

- مع أنه يُعاني من الفراغ والوحدة في هذا المكان المنعزل!

***السابقون:**

توقف المندوبُ ليرتدي سترته ويمسح عَرقه وهو يقول:

- آخر مشتبه فيه أحضرته معي إلى هنا، كان مثلك هكذا، طيب وديع، يثور سريعًا ويهدأ أسرع.. ظل طوال رحلته يُحدثني عن حنينه إلى طفله وزوجته، وأراني صورة طفله وكان باسمًا في الصورة وجميلًا.. فأدركتُ أنه حظي بهذا الجمال عن طريق أمه.. واعترف لي الرجلُ بأنها فاتنةٌ وأنه تزوجها بعد حب عظيم، وبعد نضالٍ أعظم في كسب ودها..

قال في عجب وهو ينتهي من هندمة نفسه:

- لا أفهم كيف يتزوج الإنسان بعد حب!!.. المرأة تُؤخذ.

ومضى يُحدثني عن أحكامه في النساء وفي أمور الدنيا بكلماتٍ نادرةٍ حاسمةٍ..

***لا أحد.. لا أحد:**

.. ثم عاد إلى قصة الرجل السابق وقال:

- قلت إنه كان وديعًا وطيبًا، مثلك تمامًا، وكنتُ قد حصلتُ له على وثائق البراءة من جميع المخافر.. وكان هذا مخفره الأخير، ولو ثبتت براءته لتوجه إلى زوجته الفاتنة وطفله الجميل.. لكن ما أن دخلنا إلى الضابط الذكي، وما أن وقع بصرُه على المتهم، حتى زال مللـه وانتعشت ملامحُه الرسمية وبرقت عيناه ظفرًا وهو يُخاطبه: "أخيرًا وقعت في يدي.. لقد كنتُ أنتظرك أيها المجرم".. ثم أدخله غرفة السجن هاتفًا منتصرًا بأن انتظاره لم يدم طويلًا فلا أحد يفلت.. لا أحد..

أكمل المندوب:

- ثم تركته معه بعد أن وقَّع لي على إيصالٍ باستلامه.. وعند خروجي إلى الصحراء أخرجت وثائق براءاته ونثرتها جميعًا فوق الرمال الشاسعة، وتنفست الصعداء لأنها كانت تُثقل حقيبتي.. وبدأتُ أعود وصوت الضابط الذكي يُردد منتصرًا: "لا أحد يفلت.. لا أحد".

*شواهدُ الباب الخلفي:

تسيبت أعصابُ ساقي.. وزاد توتري عندما فوجئتُ بما هو موجودٌ أمام الباب الخلفي، عددٌ كبيرٌ من الأحجار الضخمة الملقاة فوق الرمال وعلى مسافاتٍ شبه متساوية!!.. دُهشت وتساءلتُ عن سرها فابتسم المندوبُ وطمأنني:

- لا تخف إطلاقًا.. إن المعاملة هنا أرقى منها في أي مخفرٍ آخر، بالإضافة إلى أنها حاسمةٌ وهادئةٌ.

اقتربنا من المدخل.. وكان ضيقًا وخفيضًا وينم عن ظلامٍ دامسٍ في الداخل..

فألحفت على المندوب أن يُخبرني عن سر هذه الصخور، همستُ:

- تبدو كشواهد قبور!!

ابتسم:

- أعـترفُ لـك بالـذكاء إلى جانـب الطيبـة والوداعـة، كالسـابق لـك تمامًـا..

ارتجفتُ.. قال:

- لا تكـن سـيئ الظـن.. ألم تلاحـظ أن رحلتنـا إلى هنـا كانت طويلـةً جـدًّا مرهقـةً جدًّا؟!

أومأتُ.. قال:

- وهـذا هـو السـبب.. فعنـد تخيـير السـابقين لـك بـين البقـاء هنـا أو العـودة اختـاروا المكـوث..

كذب.. ضغطتُ على أسناني.. كذب.

قال:

- أنـا لا أكـذب.. ألم تُوافقنـي بنفسـك تـوًّا أن رحلـة المجـيء كانـت طويلـةً ومرهقـةً؟! لقـد فضَّلـوا جميعُهـم البقـاء هنـا عـن خـوض تجربـة الإيـاب.. والمواطـن حـرٌّ في ذلـك.

وبـدون مناسـبةٍ عـلا صوتُـه بالهتـاف لديـار أيبـوط الحـرة، وبحيـاة رئيسـها الديجـم العظيـم.. ثـم أمـرني بـأن أتبعـه..

الفصلُ السابعُ والأخيرُ
أيها الوديعُ الطيِّب

***الأصداء.. الأصداء:**

- اتبعني.. قلتُ لك اتبعني..

فخطـوتُ خطـوتي الأولى عـبر عتبـة البـاب الضيـق الخفيـض.. وعـدتُ أسـأل المنـدوب:

- وهذه الأحجار التي فوق الرمال، ماذا عنها؟!

قال بصوتٍ باردٍ:

- اتبعني أيها الطيب الوديع!

فلـما تقدمـتُ أكـثر صـار كل مـا حـولي ظلامًـا واختناقًـا.. وفقـدتُ الرؤيـة فتتبعـتُ أصـوات خطواتـه، محـاذرًا وفي بطءٍ.. كالسـابح في بحـر الظلـمات.. ولاحظـت أن الصـدى يُـردد وقـع

خطواتنـا، وأن لأنفاسـنا خشخشـةً كخشخشـة أوراق الأشـجار المتسـاقطة.. وعندمـا تحـدَّث المنـدوب ليجيبنـي عـلى سـؤالٍ حدثـت لصوتـه أصـداء عديـدة متتاليـة متداخلـة.. ورنـت كلماتـه ورنـت الأصـداء وجـاءني جوابـه:

- كـما قلـتَ أنـت أيهـا الوديـع الطيـب، فهـذه الأحجـار هـي بالفعـل شـواهد قبورهـم.. قبورهـم.. قبورهـم.. هـم..

كتبٌ للمؤلف

١- فوستوك يصل إلى القمر.. قصص ١٩٦٧

٢- خمس جرائد لم تُقرأ.. قصص ١٩٧٠

٣- الأيام التالية.. قصص ١٩٧٢

٤- دوائر عدم الإمكان -رواية طبعة أولى (نفدت) ١٩٧٢.. طبعة ثانية ١٩٧٥

٥- أبناء الصمت –رواية (نفدت) ١٩٧٤

٦- غرائب الملوك ودسائس البنوك) حكايات حول قناة السويس) ١٩٧٦

٧- الهؤلاء –رواية (نفدت) ١٩٧٦

٨- الرليف -قصص) جائزة الدولة التشجيعية + وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى) ١٩٧٨

٩- غرفة المصادفة الأرضية -رواية ١٩٧٨

١٠- مغامرات عجيبة (رواية للأولاد والبنات) ١٩٨٠

١١- كشك الموسيقى (رواية للأولاد والبنات) ١٩٨٠

١٢- حنان - رواية ١٩٨١

مجموعة قصصية
أحمد عويضة
زهرة الشيخ
عشق

منتصر امين
رواية
شتاء أخير

مجموعة قصصية
مُراد ماهر
أولياءُ كاذبون

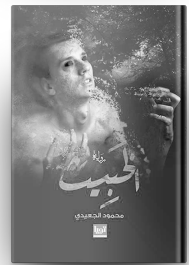

رواية
الحبيب
محمود الجعيدي

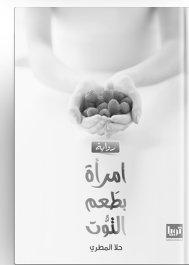

رواية
بنت نبي
محمود حافظ

رواية
امرأة بطعم التوت
حلا المطري

أحمد عاطف
الحياة على سطح البطيخ

وقت جيد للتحليق
مجموعة قصصية
بيتر ماهر

رامي أحمد
«بث مباشر»
Belly
بيلي
broadcast live

النبض صفر
رواية
عبدالرحمن جاويش

بيضة مان
فلسفة التحول
كيرلس بهجت

فيها حاجة حرشة
سارة الذهبى

الخروج عن النص
د. محمد طه

... رواية ...
تغريدة عشق
هالة البشبيشي

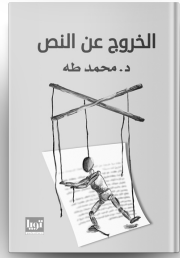

ايهاب مصطفى
اسمها زينب
قصص

يالو
حقل الأحلام
مصطفى يوسف

علاقات خطرة
د. محمد طه

رواية
الطريق إلى
السيدة العجوز
محمد آدم

تويا

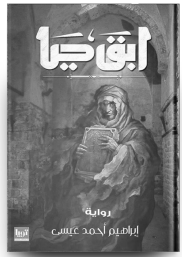

دار تويا للنَشر والتَوزيع